نحن نحب الحياة...
ما استطعنا إليها سبيلا

مجموعة القصص الصحفية الفائزة بجائزة العودة للعام ٢٠١٠

بديل / المركز الفلسطيني
لمصادر حقوق المواطنة واللاجئين

نحن نحب الحياة . . . ما استطعنا إليها سبيلا
مجموعة القصص الصحفية الفائزة بجائزة العودة ٢٠١٠

الطبعة الأولى : كانون الثاني ٢٠١١

الرقم المعياري الدولي : ٨-٢٤-٣٣٩-٩٩٥٠-٩٧٨

الافكار والمضامين الواردة في هذه القصص تعبر عن وجهة نظر أصحابها ،
ولا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر مركز بديل .

© حقوق الطبع والنشر محفوظة لمركز بديل

صورة الغلاف : طفل فلسطيني ينظر إلى بيته المدمّر جرّاء العدوان الإسرائيلي على قطاع غزة . منطقة التوام شمال القطاع ، ٢٠١٠ (تصوير : باسل المقوسي)

بديل/ المركز الفلسطيني لمصادر حقوق المواطنة واللاجئين
بيت لحم ، فلسطين .
ص . ب . ٧٢٨
هاتف : ٠٠٩٧٢٢٢٧٧٧٠٨٦
تلفاكس : ٠٠٩٧٢٢٢٧٤٧٣٤٦
بريد ألكتروني : info@badil . org
صفحة الانترنت : www . badil . org

المحتويات

حول جائزة العودة السنوية ص٤

حول هذا الإصدار ص٥

عن القصص الفائزة ص٦

الطريق إلى جفعات حبيبا.....ص٩
بقلم: سائد قبها

عشرة أيام عودة.....ص١٥
بقلم: حسين شاويش

كنّا وما زلنا ص٢١
بقلم: محمود الكرد

قالت لي امرأة وغابت ص٢٧
بقلم: محاسن البرغوثي

جدتي: ما بين شظايا المعاناة ولحم العودة ص٣٥
بقلم: شادية سليمان

شحنة من أمل ص٤١
بقلم: ميسون الأسدي

مصطفى ص٤٧
بقلم: سامر منّاع

الأرصفة.....ص٥٣
بقلم: خضر مناصرة

الطاحونة.....ص٥٩
بقلم: باهي الخطيب

حفنة تراب وغصن جميز ص٦٥
بقلم: جمعة أبو الحاج

حول جائزة العودة السنوية*

أطلق بديل / المركز الفلسطيني لمصادر حقوق المواطنة واللاجئين رسمياً مشروع جائزة العودة السنوية في كانون أول من العام ٢٠٠٦، وذلك بعد سلسلة طويلة من المشاورات الداخلية ومشاورات مع العديد من المختصين وشركاء المركز. والفكرة الأساسية من وراء هذا المشروع تتمثل في تفعيل وإطلاق الطاقات الكامنة بين عموم أبناء الشعب الفلسطيني، وتشكيل منبر لكل المُبدعين والمُبدعات من الفلسطينيين المؤمنين بحقوقهم وعدالة قضيتهم والمُصممين على الانتصار لشعبهم، وكذلك لتكون ملتقى وطنياً جامعاً يجمع الفلسطينيين من كل أرجاء العالم، من فلسطين التاريخية والمنافي، حول حق العودة إلى الديار الأصلية.

شملت جائزة العودة للعام ٢٠١٠ خمسة حقول هي: البوستر، والكاريكاتير، والورقة البحثية، والقصة الصحفية، والصورة الفوتوغرافية لجيل ما دون ١٨ عاما. اما لعام ٢٠١١، وبناء على تقييم لجان التحكيم؛ فقد تم تجميد حقل الورقة البحثية، وإعادة حقل أدب الأطفال. وللتأكيد على الشفافية والمصداقية، يتعاون مع مركز بديل نخبة كبيرة من خيرة أبناء الشعب الفلسطيني من المختصين، من كتاب، وفنانين، وصحفيين، ومخرجين وباحثين وأساتذة جامعات، وناشطين، ليوجهوا مشروع جائزة العودة، وليشكلوا لجان تحكيم مستقلة عن مركز بديل تتولى مهمة إصدار أحكامها بصورة حيادية ومهنية. وقد وضعت لجان التحكيم فعلا، معايير علمية وموضوعية لتقييم المشاركات وإصدار أحكامها النهائية. وقد تألفت لجنة تحكيم جائزة العودة في حقل القصة الصحفية للعام ٢٠١٠ من كل من الأساتذة: عبد الناصر النجار، قاسم خطيب، خليل شاهين، ناصر اللحام، نجيب فراج.

---

* للمزيد من المعلومات حول جائزة العودة، أنظر موقع مركز بديل على شبكة الانترنت: www.badil.org

حول هذا الإصدار

يحتوي هذا الإصدار على القصص الصحفية الفائزة بجائزة العودة السنوية للعام ٢٠١٠. وتأتي القصص الثلاثة الأولى مرتبة تباعاً بحسب المراتب. الأولى، والتي احتلتها قصة سائد قبها وحملت عنوان: «**الطريق الى جفعات حبيبا**»، والثانية احتلتها قصة حسين شاويش وحملت عنوان: «**عشرة أيام عودة**»، والثالثة قصة محمود الكرد وحملت عنوان: «**كنا وما زلنا**...». ويشار هنا انه ليس لترتيب القصص التالية أية دلالة على مرتبتها؛ فهي جميعا حائزة على جوائز تقديرية ولا مفاضلة بينها بحسب لجنة التحكيم الخاصة بالقصص الصحفية.

ويصدر بديل/ المركز الفلسطيني لمصادر حقوق المواطنة واللاجئين هذه القصص التزاما ووفاء بتعهداته المبينة في شروط جائزة العودة الخاصة بحقل القصة الصحفية، وتقديرا لجهود الكتاب الذين أسهموا بمشاركاتهم في اغناء ثقافة ومسيرة العودة. ويشار هنا إلى أن دور مركز بديل قد اقتصر على عملية التحرير اللغوية والفنية للقصص ولم يتدخل لا في المضامين ولا الأفكار.

ويجيء إصدار مجموعة القصص الفائزة استكمالا للهدف من وراء طرح هذا الحقل ضمن حقول جائزة العودة السنوية. لقد كان الهدف من وراء طرح هذا الحقل إبراز دور الصحفيين وأهميته في معالجة قضايا اللجوء والتهجير لما لكتاباتهم من اثر وتأثير على تشكيل الوعي العام، وخصوصا لدى الأجيال الشابة من أبناء فلسطين. وغني عن القول أن القلم المنتمي لقضية نبيلة وعادلة هو ضمان إبقائها حية في كل المحافل، وعبر كل المراحل وعلى كل المستويات.

عن القصص الفائزة

القصص العشر الفائزة؛ سواء بالمراتب الثلاث الأولى والثانية والثالثة، أو السبع الفائزة بالجوائز التقديرية تنتقل بالقارئ من صورة إلى أخرى، تختلف فيها الأسماء والمشاهد وتفاصيل الأحداث، ويبدع كتّابها في نسج اللوحة الفنية بكلمات مباشرة المعنى وأخرى رمزية في دلالتها، ولكنها جميعا تردد ذات المعنى: "**نحن من هناك... نحن باقون... وللحلم بقية**".

في «**الطريق إلى جفعات حبيبا**» يعلن سائد قبها، صاحب المرتبة الأولى، أن «مركز السلام» المزعوم ما هو إلا مركز لانتزاع إقرار الضحية بحق القاتل بالقتل، ولا يعدو «السلام» بمنطق المستعمر إلا أكذوبة، إذ يقوم المركز على أنقاض قرية فلسطينية مهجرة، وأي سلام هذا الذي ينكر حقوق اللاجئين!

وفي «**عشرة أيام عودة**» يكتشف حسين شاويش، الفائز في المرتبة الثانية، والذي لم يسبق له أن عاش في قريته الأصلية قبّاعة؛ يكتشف أن قصص أبيه عنها لم تكن مجرد حكايا وصور متناثرة، بل وجدها في نفسه رابطة قوية عميقة لم يدركها سابقا فيعلن: « ترى من قال أني غادرتها؟».

أما محمود الكرد، صاحب المرتبة الثالثة، فيأخذنا عبر قصته: «**كنا وما زلنا**» بكلمات رقيقة ولكن نازفة، وينقلنا مع خطوات جدته ما بين النكبة والحرب العدوانية على قطاع غزة. جدة تحضن حلمها حتى وهي تُوْدِع ابنها الثرى. فما بين النكبة وغزة زيتونة؛ هي الجدة التي تأبى، رغم مآسيها، إلا أن تكون فلسطينية.

محاسن البرغوثي الفائزة بجائزة تقديرية عن «**قالت لي امرأة وغابت**» تحملنا إلى مساحة أخرى من معاناة اللجوء، تأخذنا إلى الأثر النفسي على اللاجئين، حيث أن القسوة الظاهرة على المرأة اللاجئة تخفي وراءها الإصرار على الحياة، فخلف القسوة طفولة بريئة سلبت عندما سلبت فلسطين.

وجدة شادية سليمان، الفائزة بجائزة تقديرية عن «**جدتي: ما بين شظايا المعاناة وحلم العودة**»، لم يكفها أن تعيش النكبة، واللجوء، بل قاومت مرضها، وكبر سنها، وكرسيها، وحرب العدوان على غزة، تكبو، وتنهار في كرسيها، ولا يسقط حلم العودة، وكأنه تعويذة نجاتها، وسر الحياة الذي تنقله للأجيال حتى في موتها.

وفي «**شحنة من أمل**» تتنقل بنا ميسون الاسدي الفائزة بمرتبة تقديرية، ما بين النكبة والحاضر، ما بين لبنان، ومصر، وفلسطين. . . ترتفع بنا أطفالا صغارا مع طيارتها في السماء إلى دنيا الأحلام، وتهبط بنا إلى ارض الشهداء، تدفع فينا «شحنة من أمل».

وسامر مناع الحائز على جائزة تقديرية عن قصة «**مصطفى**»، يسترسل في رسم صورة من صور اللجوء والمعاناة في لبنان. فالنكبة لم تنته بمجرد بقاء ثلاثة أرباع الشعب الفلسطيني لاجئا مشردا، بل تتجدد النكبة في التشريد المتكرر، وفي صورة الفتى مصطفى الذي يفقد حقوقه كفلسطيني وكطفل.

أما في «**الأرصفة**» لخضر مناصرة الحائز على جائزة تقديرية، فتكثر الأرصفة التي لا يثبت منها تحت أقدام اللاجئين شيء، وتتعدد صور اللجوء. وما بين النكبة، وبغداد، ولبنان. . . تختلف تفاصيل المشهد، وتشتد قساوة مشهد الشيخ جراح في القدس.

وفي «**الطاحونة**» لباهي الخطيب الحائز على مرتبة تقديرية يكبر شاهر الطفل الذي غفل إحضار الطاحونة وقت التهجير في العام ١٩٤٨، يتجلى معنى انتقال الحق والراية من جيل إلى جيل. فيجلس أبو إسماعيل- شاهر الطفل - الشيخ، ليقص على الأحفاد قصص البلاد ويزرع فيهم قداسة الحق والأرض.

أما في «**حفنة تراب وغصن جميز**»، فيقص علينا جمعة أبو الحاج الحائز على مرتبة تقديرية قصة الإصرار على الحياة رغم التهجير. يرينا كيف تتناثر نجاحات حياة اللجوء وحياة اللاجئين بصاروخ غادر من جهة، ويرينا ما هو أكثر من صبر أيوب في صورة جيل ينشأ مسلحا بإرادة العودة؛ العودة إلى الديار الأصلية.

بكلمات، القصص الصحفية المنشورة هنا تروي قصتنا كلنا، وتقول: «**نحن نحب الحياة إذا ما استطعنا إليها سبيلا**».

هيئة التحرير - مركز بديل

أُم الشوف : الحاج أحمد نجيب مسعود صباح (أبو صباح) يحمل بين يديه قائمة مفصلة بأراضي والده في أم الشوف، ولد سنة ١٩٢٣م، يعيش اليوم في مدينة الرصيفة/ بالأردن . (تصوير : ساهر كدارة)

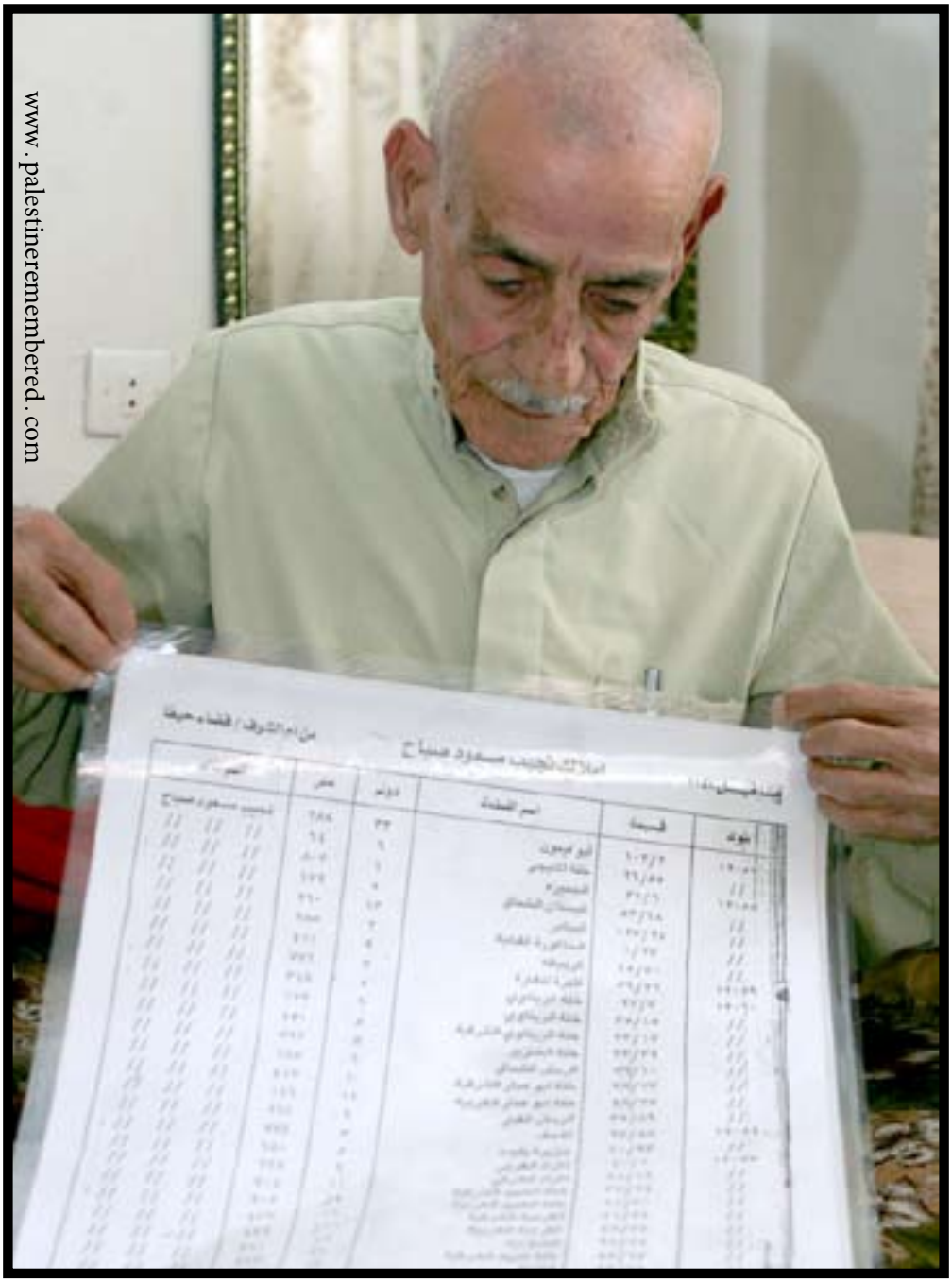

الطريق إلى جفعات حبيبا*

بقلم: سائد قبها**

لم يكن يتوقع أن تصاريف القدر سترحل به إلى حيث حنين الماضي وسني الحرمان. شدّه إلى المكان شعور لم يعهده من قبل. أشجار الكينا تسدل عباءتها كأنها كهل أثقلته السنين، تناجي عروق الصبار، وأكوام الحجارة المتناثرة يحتضنها مرج يوحي يُنوعه وجسده المطرّز بالأقحوان والحنون بزيف ابتسامة تخفي جبلا من الأنين. . . شعور تملّك ذاكرته بأن هناك علاقة بينه وبين هذا المكان.

غسان واحد من ثلاثة شبان قادتهم مرحلة شبه الانفراج والبحث عن سبل تعزيز لغة التفاهم والحوار وتوطيد العلاقات ما بين الشعبين بعد اتفاق أوسلو إلى مركز السلام العربي الإسرائيلي المسمى «جفعات حبيبا».[1]

نواة الفكرة أنجبتها زيارة عادية لبيت قريب له كان يعمل مديراً للبرامج العربية في هذا المركز، وذات الصدفة هي التي جمعتهم مع مدير عام المركز والمسؤول المباشر؛ حين كان في زيارة لبيت قريبه في الوقت نفسه.

"البروفسور (داني)، مدير عام مركز جفعات حبيبا. . ." هكذا عرّف به الأستاذ رياض، صاحب البيت وقريب غسان.

---

* القصة من وحي الواقع مع تحوير وتعديل على أسماء الشخوص اقتضتها الضرورة (ملاحظة المؤلف). وهي القصة الفائزة بالمرتبة الأولى في جائزة العودة السنوية للعام ٢٠١٠ في حقل القصة الصحفية.

** سائد قبها: نائب مدير التربية والتعليم/ فرع طوباس، حاصل على درجة الماجستير في الأدب العربي من جامعة النجاح الوطنية.

هزوا رؤوسهم إيماءً بالتحية والتقدير. أنا غسان... خالد... محمود... عرّفوا بأنفسهم دون التحدث بمسميات أو مواقع. وأضافوا: "نحن أقارب الأستاذ رياض".

تناولوا أطراف الكلام، وغرقوا بالحديث عن ماضي الصراع وعملية السلام، ومستقبل الشعبين، وسبل تعزيز الحوار والتعايش بين الأجيال، وبنوا في حديثهم أحلاماً لمستقبل وردي... وأشار البروفسور إلى مجموع الأنشطة التي ينفذها المركز في سبيل تحقيق ما تم الحديث عنه، لا سيما بين فلسطيني ٨٤ واليهود.

"أقترح أن تقوموا بزيارة للمركز للاطلاع على أقسامه وبرامجه، وسنقوم بترتيب ذلك لكم واستصدار تصاريح الدخول".[٢] هكذا أنهى مدير عام المركز الحديث. بدت لهم الفكرة مستساغة، وتتماشى مع طبيعة المرحلة. أبدوا موافقتهم بسرعة وشجعهم رياض على ذلك، وأبدى استعداده لترتيب الزيارة.

كان يوماً ربيعياً... سرحت أعينهم، ولم تكن ترى في ساحة المركز إلا أحواضاً ومربعات تطمس حقيقتها أزهار متنوعة الألوان، وتخفي ابتسامتها ماضياً يئن بالذكريات، تدفن تحتها إرثاً من التشرد والضياع. رغم جمالية المكان وحفاوة الاستقبال، فإن أكوام الحجارة خارج سور المركز، وألواح الصبار المطلة من زحمة الأعشاب، وشموخ الأقحوان سرعان ما تقلب الصورة. يتبدل الشعور بجمال المكان، وتسرح الذاكرة إلى أفواج من المهجرين محملة ظهورهم وأكتافهم أطفالاً وأمتعة، ويقبضون بأيديهم على مفاتيح يناديها صرير الأبواب...

الصورة القاتمة خارج الأسوار لم تفارق مخيلته طوال الزيارة، ولم تمنعه شروح المرشدة وتعريفاتها بأقسام المركز وجنباته من تكرار النظر من خلال النوافذ إلى الخارج. "لا بدّ لهذا المكان من ذكرى... لن أسأل هذا المرشدة؛ لأنها بالطبع ستخفي الحقيقة، هذا إذا كانت تعرفها..." . هذا ما جال في خاطر غسان.

الساعة الآن السادسة مساءً، ولم يتبق لانتهاء التصريح سوى ساعة. غادر الثلاثة المكان في سيارة رياض، وبقي ذهن غسان متعلقاً بذاك المكان. لم ينفك خالد ومحمود يبديان رأيهما الذي أحب

أن يسمعه رياض، بينما هو شارد الذهن يسترجع شريط اليوم الذي قارب على الانتهاء. الحجارة، وأزهار الحنون، وشجرات الكينا، وألواح الصبار هي كل ما تجمع في ذاكرته.

- ما سمعنا رأي غسان... ما رأيك في المركز؟

فاجأه رياض بهذا السؤال على حين غفلة منه.

- ها.. (التفت فجأة)... آه مركز جيد!

ثم عاد إلى غفلته.

عادت ذاكرته إلى حديث والدته يوماً، حين ندبت حظها بأنه ليس لهم أرضاً يبنون عليها؛ لأنهم تركوا أرضهم في وادي عارة بعد أن سمعوا أن اليهود شرّدوا أهل (أم الشوف)،[٣] وقتلوا الرجال وهتكوا الأعراض. واستقر بهم المقام في برطعة إلى ما بعد وفاة جده، ثم باعت جدته الأرض التي ورثتها من والدها لترحل إلى يعبد وتتزوج للمرة الثانية.

لم يكن يتوقع غسان أنّ ساعات المساء بعد وصوله للبيت ستحمل في أحشائها حقيقة مرة تسوقها إليه مصادفة القدر. جلس أمام التلفاز مع والده الذي كان يتابع برنامجاً على قناة الجزيرة، ولكن غسان كان يتابع شريط الزيارة الذي بقي عالقاً في ذهنه. كسر شرود ذهنه قول والده: "برااو... والله إنه مذيع شاطر". كانت مقابلة إخبارية مع "شمعون بيرس" وزير خارجية الاحتلال آنذاك، حين خرج مقدم النشرة عن المألوف وقال لبيرس ساخرا من طروحاته حول توطين اللاجئين وتعويضهم: "أنت تسكن فوق منزلنا وعلى أرض هي لي ولأهلي".

- هل تعرف مركز جفعات حبيبا "يابا" ؟

سأل والده عندما رأى على وجهه نشوة الفرح بحديث المذيع.

- آه... أنا إللي بعرفه أكثر من غيري. هناك جنب (أم القطف)،[٤] كنا نسكن قبل أن نترك بيتنا ونقعد في (برطعة).[٥] ومن هناك طلعنا مع سيدك وستك وقت الحرب. وهذا المركز إللي بتحكي عنه تحته أو جنبه كان بيتنا.

الآن أدرك غسان حقيقة الشعور الذي تملّكه حين قال في نفسه: "لا بد أنّ علاقة ما تربطني بهذا المكان".

- اليوم كنا هناك . . . والله أول ما شفت الحجار وألواح الصبار وأشجار الكينا صابني شعور إنه كأني بعرف هالمكان وفي إشي بربطني فيه .
- وشو الفائدة يا بوي . . . راحت البلاد وراحوا أهلها . . .

قالها بزفرة ممزوجة بالألم، وتبدلت معالم وجهه من نشوة الفرح لما سمعه من المذيع إلى حسرة على ماضٍ أثار أشجانه .

لحظات الغفلة والتأمل بذاك المكان تكررت في نفس غسان مرة ثانية . وتمنى أن تتاح له الفرصة أن يجتمع بإدارة المركز من جديد ليتقمص دور المذيع وهم يتولون دور وزير خارجية دولتهم؛ ليقول لهم : إنّ مركزكم الذي تسعون من خلاله إلى تعزيز التفاهم والتعايش ويحمل اسماً فيه كلمة (السلام) هو أكذوبة قامت على أنقاض بيتنا . . . ولن يكون هناك سلام؛ إلاّ إذا أعيد بناء أكوام الحجارة بيتاً لأصحابه، وعادت البسمة الحقيقية إلى المرج الذي وقف مركزكم كجلاد يلوح بسوطه ليخيف زنابق الأقحوان .

(الهوامش)

١ جفعات حبيبا : مركز السلام العربي الإسرائيلي . أقيم على أرض قرية أم القطف على الطريق المؤدي ما بين باقة الغربية ووادي عارة ، تنفذ فيه برامج ثقافية واجتماعية تهدف إلى تعزيز التفاهم ما بين فلسطيني ٤٨ واليهود في إسرائيل .

٢ التصاريح : إذن دخول بوثيقة تصدرها الإدارة المدنية-العسكرية الإسرائيلية للفلسطينيين من الضفة الغربية وغزة إلى أراضي ٤٨ سواءً للعمل أو العلاج أو الزيارات . وترفض منح الكثير منهم بحجة أن دخولهم يشكّل خطراً على أمنها .

٣ أم الشوف : قرية فلسطينية مدمرة تقع في أراضي الروحة ما بين أم الفحم ووادي عارة، هجر أهلها من قبل عصابات الصهاينة عام ٤٨ . ويقيم الاحتلال الآن على أرضها معسكراً للتدريب .

٤ أم القطف : قرية عربية في أراضي ٤٨ ما بين باقة الغربية ووادي عارة .

٥ برطعة : قرية عربية تم تقسيمها بعد الهدنة عام ٤٨ إلى قسمين : برطعة الغربية وأخضعت للإدارة الإسرائيلية، وبرطعة الشرقية وتتبع محافظة جنين، ويفصلهما وادي . وينحدر أهل القريتين من جد واحد هم عائلة (قبها) .

كروم الزيتون على أراضي قرية قبّاعة قضاء صفد، ٢٠٠٧ (تصوير: مفيد شاهين)

عشرة أيام عودة*

بقلم: حسين شاويش**

بدأ كل شيء بإيميل: "يسرُّ معهد غوته في رام الله أن يدعوكم للقراءة من كتابكم . . ." .
نكصت فورا إلى طفل في العاشرة يتفاجأ برؤية أمه بعد غياب سنتين على الأقل. أحسست بأن هذه الدعوة قد حسمت قرارا ما زلت أتردد في اتخاذه منذ سنوات؛ أي منذ أن حصلت على جواز السفر الألماني وأصبحت بذلك زيارة فلسطين ممكنة. أما سبب ذلك التردد في اتخاذ قرار زيارة الوطن فهو قناعة جيل كامل من لاجئي الشتات، الذي أنا واحد منه، بأن زيارة من هذا النوع هي نوع من التطبيع مع المحتلّ. وهكذا، عشنا أكثر من نصف قرن ونحن نصارع لنتوازن في النقطة المتوسطة ما بين اليأس من رؤية وطننا والشوق القاتل إليه.

"موبايل جديد خال من الأرقام، وجواز جديد خال من ختم العواصم العربية، أو أنه خاص بهذه الرحلة". هذه كانت نصيحة عدد ممن استشرت. وقد اتّبعتها.

كان المخطط في رأسي بسيطا. سأسافر في البداية إلى رام الله ثم أبدأ رحلة "العودة المؤقتة" إلى القبّاعة، قريتي الجليلية. وستساعدني الدعوة الرسمية من معهد غوته الألماني في رام الله على تسريع إجراءات "العبور" من المطار الإسرائيلي. لكنّ السؤال الأكبر هو: كيف سأتعرف على قريتي التي دمّرها الاحتلال عام ١٩٤٨ ومحا اسمها تماما من الخارطة؟ سألت وبحثت كثيرا وعثرت على ثلاثة

* القصة الصحفية الفائزة بالمرتبة الثانية في مسابقة جائزة العودة للعام ٢٠١٠ – حقل القصة الصحفية المكتوبة.

** حسين شاويش: من مواليد سحم الجولان، بدأ الكتابة في الصحافة الفلسطينية واللبنانية منذ عام ١٩٨٠ مثل فلسطين الثورة، السفير، دراسات عربية، القدس العربي اللندنية. عمل كطبيب عام في وزارة الصحة السورية ثم في الهلال الأحمر الفلسطيني حتى عام ١٩٨٩. يقيم منذ عام ١٩٩٠ في برلين/ ألمانيا، صدر له كتابان الأول: الحب والاستلاب: دراسة في الشخصية المستلبة. والثاني: سفر بين العوالم: يوميات طبيب فلسطيني بين البقاع وبرلين.

عناوين للأجوبة: الأول اسمه «زوخروت»؛ وهي منظمة تحوي عربا ويهودا وتعمل على نبش التاريخ العربي لفلسطين وعلى تعريف الفلسطينيين على قراهم التي دمّرها المحتل الصهيوني أو استوطنها. أما العنوان الثاني فهو: «تاريخ الذاكرة الشفهية للنكبة» المؤرشفة في صفحة خاصة في الانترنت. وأخيرا مقارنة خرائط فلسطين ما قبل النكبة بخرائط إسرائيل الحالية. وصلت لمجموعة «زوخروت» عبر الانترنت واتفقت معها على موعد في تل أبيب، وقد ساعدتني فعلا لا في مقارنة الخرائط فحسب؛ بل وفي زيارة القرية نفسها، كما سأروي لاحقا.

أدخلني «غوغل» إلى صفحة التاريخ الشفوي، ومنه عبرت إلى صفحة القبّاعة ضمن الجزء الخاص بقرى صفد. هناك استمعت إلى مقابلة مع أحد مواطني قريتي، واسمه عبد الله الرفاعي ثلاث مرات، ورسمت خريطة للقرية وما يجاورها اعتمادا على روايته، وعلى ما علق في ذاكرتي من قصص أبي وأمي وأصدقاء عمرهما.

وعبر تلك الشبكة العنكبوتية إياها –الانترنت– حجزت التذكرة التالية: برلين– تل أبيب، وبالعكس. الذهاب ١٤ والإياب ٢٤ من كانون أول عام ٢٠١٠، على خطوط «توركش إيرلاين» (الخطوط التركية) مع ترانزيت في اسطنبول. كانت الرحلة المباشرة مع شركة «العال» الإسرائيلية ممكنة نظريا، لكن القلب لم يكن يحتمل ذلك.

الانترنت ساعدتني أيضا «بمحو أمّيتي» بما يتعلّق بالألف باء العبري. فلم يكن من الذكاء التنقّل في شوارع لا يمكن لك قراءة أسمائها، وخاصة إذا كنت فلسطينيا في مناطق محتلّة. فرحت بالاكتشافات الصغيرة. منها مثلا ترتيب الحروف على نسق أبجد هوز حطي.. الخ، وإن كنت سأكتشف فيما بعد أن اليهود الأوروبيين سيلغون عمليا كل الألفاظ المشتركة مع العربية كالعين مثلا، لأنها صعبة عليهم؛ أي أنهم سيحوّلون العبرية إلى شيء «لا سامي» من ناحية اللفظ على الأقل.

في الطائرة، عادت قصة السنوات الخمس الأخيرة من حياة أبي تلح على الذاكرة. تلك السنوات التي قضاها يبكي على «القبّاعة» بعد أن أدرك أنه سيموت دون أن يراها حتى ظن الناس أنه خرف؛ فأخذوا يتأسّفون لنهاية رجل عاقل. كانت هذه الأخبار تأتيني من مخيم اليرموك عن طريق إخوتي هناك الذين يشاركونه الدار بينما لا استطيع أنا، فقد كانت زيارتي لسوريا ممنوعة، وما تزال.

ليس جديدا أن يتذكر أبي القبّاعة فأنا لا أكاد أتذكر يوما واحدا من أيام طفولتي لم تكن القبّاعة فيه موضوعا لحلم رآه أو رأته أمي في الليلة السابقة. . . حتى كدنا – نحن الصغار– نكاد نسبح في «عين المقلد»، أو نملأ بطوننا من تين ورمان «خلة العين»، أو وادي اللوز؛ هذا إذا لم ينهرنا جدي «حمادة» الذي كان يخافه الكبير والصغير. . . كل ذلك كنا نراه بعيونهم التي كانت ما تزال تناضل مع قهوة الصباح لتودّع القبّاعة وتعود إلى مخيم اليرموك. . . ولا شك أنهما ماتا قبل أن ينجحا في ذلك الوداع.

القبّاعة أخيرا، أو البكاء على الأطلال:

لن أروي هنا قصة زيارتي إلى رام الله والأمسية الأدبية في معهد "غوته"، والتي تلتها مقابلة مع التلفزيون الفلسطيني صباح اليوم التالي بالاشتراك مع منسّقة البرامج في المعهد "وفاء مسعود" التي نظّمت في الواقع كل شيء. ولا لقاءاتي الكثيرة في رام الله وأهمها مع الكاتب الصديق "تحسين يقين"، ولا حتى زيارتي إلى بيت لحم وما انطبع في الذاكرة من ذلك كلّه، رغم أن بعضه كان من التأثير في نفسي بحيث كاد يغيّر الكثير من "أجندة حياتي" المقبلة تقريبا. . . وسأنتقل فورا إلى تل أبيب حيث استضافني "تومر" وزوجته "ميكه". و"تومر" هو مناضل في "زوخروت" أما "ميكه" فهي ألمانية تعمل مع مؤسسة روزا لوكسمبورغ.

كان يجلس إلى جانبي في "الميكرو– باص" من القدس إلى تل أبيب عامل فلسطيني من نابلس؛ حدثّني عن معاناة أهل الضفة الذين يبحثون عن عمل في "إسرائيل". حدّثني عن تلك الليلة التي رافق فيها مهرّبا يعرف جيّدا الأماكن التي يمكن فيها القفز من فوق الجدار. وهي أماكن نادرة ولا يعرفها إلا خبير. كان الوقت ليلا فلم ينتبه المسكين إلى شظايا الزجاج أو المعدن المسنن في حافة الجدار والتي انغرزت في اليد مسببة جرحا عميقا جعل الرجل ينتهي في المستشفى؛ ثم في السجن بدلا من العمل. رأيت الندبة العميقة في راحة يده، وتذكرت عاملا فلسطينيا آخر من بيتونيا روى لي كيف يحشر نفسه كل صباح في صندوق السيارة الخلفي كي لا يراه الجنود على "المحسوم" –أي حاجز الاحتلال– للهدف نفسه؛ العمل.

في بيت "تومر" حكى لي الرجل قصة والديه: إثنان كانت تعني لهما الصهيونية نقلة روحية وجسدية كاملة؛ أي نوعا من الفصام الواعي والمرغوب. مما جعلهما لا يزوران مسقط رأسيهما في أوروبا

الشرقية إلا مرة واحدة يتذكّرها تومر. "كانت زيارة بلا حنين" قال لي. إنه جيل "بن غوريون". ورغم أنه كان يحب العبرية، كما أخبرني، فهي اللغة التي رضعها مع حليب أمه، بل إنه يكتب بها قصصا وشعرا، فإنه كان يتحدث الانكليزية مع "ميكه"، زوجته البرلينية. أما معي فكانت الألمانية هي اللغة المشتركة.

في الخامسة من صباح اليوم التالي جفاني النوم. وما كنت أنتظر منه غير ذلك. خرجت إلى المطبخ وصنعت لنفسي القهوة. تومر وميكه نائمان في غرفة مجاورة. وفي الخارج تنام "إسرائيل".

لكن "إسرائيل" كانت شديدة اليقظة في رأسي. سألت نفسي إن كان يوجد في هذه الأرض من يفهم هؤلاء الناس. في الغرفة المجاورة ينام رجل عبري، إسرائيلي ويهودي ملحد! يتكّلم الإنكليزية مع زوجته ويفكّر بالاستقرار في ألمانيا؛ فيما لو لم يعد عمله هنا ذا رسالة ما. إلى جانبه تنام امرأة من برلين تعمل في مؤسسة ألمانية يسارية تحاول مساعدة الفلسطينيين في "إسرائيل"، تعلمت العبرية هنا لكنّها تفضل التحدّث بالإنكليزية وتخلط كل اللغات عند اللزوم دون أن تدري. في الخارج، تحمل معظم اللوحات الاسمية للشوارع أسماء لها علاقة بالتاريخ الصهيوني مكتوبة بنوعين من الحروف: في الأعلى عبري وتحته عربي. أما السوق، فهو خال من الحروف العربية. سألت تومر عن المعابد اليهودية التي لم أر أيا منها في تل أبيب؛ فأخبرني أن المرء لا يستطيع تمييزها عن البيوت العادية. لكن هذه البيوت نفسها تكاد تكون بيروتية، أو هنغارية، أو ربما روسية.

هل جاءت كل البلدان إلى تل أبيب معا وتخلّت كلها عن هويتها معا... كي لا يغضب أحد؟

هل هذا هو السبب بالذات لكون كل إسرائيلي لا يطيق جاره؟ هل هو السبب في هذه العصبية الظاهرة أو المخفية التي شعرت بها طوال هذه الأيام الستة والتي ذكّرتني بالعرب، قومي؟

لعل السبب هو أنهم قبروا عاطفة الحنين، ومع الحنين قبروا كل العواطف "الحنونة" الأخرى كما فعل أبو "تومر"، وكل الجيل الصهيوني الأول الذي يبدو أنه قرّر أن يشطب من ذاكرته كل ما كان يعرفه قبل دخوله إلى تل أبيب، بما فيه اللغة. لقد بدأ يتعلم العبرية ويتحدثها في الوقت نفسه. ولأنه حرّم على نفسه لغته الأصلية، فقد ضيّع معها المقدرة على التعبير عن عواطفه المرتبطة بها؛ فشطب هذه

العواطف أيضا. كل شيء يجب أن يخترعه من عدم. وهكذا فهمت سببا آخر لطرد سكان البلاد الأصليين، ومنهم أبي وأمي، فقد كان جزءا من خطة الشطب هذه، لأنهم يذكرونه بالتاريخ الذي يجب أن يصبح "غير موجود".

كان على القبّاعة أن تنتظر استيقاظ "تومر" من نومه وتلفون رنين، زميلته الفلسطينية التي كنت آمل لا بأن ترافقني إلى مسقط رأس أبي وأمي فحسب، بل وإلى كفر ياسيف لأرى كيف استطاع بعض من جيل أبي أن يصمد هناك، ولأربط عندهم خيطا أحمل طرفه الآخر معي إلى برلين.

كنت أراجع الخريطة التي رسمتها بنفسي للقرية عندما همهم تومر: "صباح الخير". بعد ساعة تقريبا انطلقنا.

هل كانت القبّاعة تضحك أم تبكي عندما رأتني قادما من بعيد بسّيارة يقودها إسرائيلي؟

في الطريق الطويل من تل أبيب إلى منطقة صفد في أقصى الشمال، رأيت كل شيء ولم أر شيئا! في لحظات صمتي الطويلة كنت أتأمل في "سيّارة العودة" تلك محاولا أن أحشرها بأية طريقة ممكنة في أرشيف المخ الذي كان يتصوّر سياقا آخر للعودة كان خاليا من أسماء من نوع مطار بن غوريون، هرتسليا، نتانيا، أور أكيفا، رامات هاشوفيت... الخ. هذه الأسماء ليست في "أرشيفه"، ولا حتى هذه السيّارة.

قررت أن أفتح أرشيفا جديدا وأن يكون هذه المرة متعدد اللغات. وكان "اليوتوب" في برلين قد بدأ في تعليمي اللغة التي أراها هنا في كل مكان والتي هي اللغة الأم "لتومر"، رغم أنها ليست لغة أمّه. أم "تومر" اختارت فصامها الواعي وأعدمت طفولتها. أما أنا فأسير بالاتجاه المعاكس تماما.

هل أسير بالاتجاه المعاكس فعلا؟ هل يقودني "تومر" في هذه السيّارة إلى طفولتي؟ لقد ولدت في سحم الجولان السورية، وقد سمعت أذناي الطفلتان اللهجة القبّاعية مع الحورانية ثم الدمشقية. وتعلّمت السباحة في نهر يزيد الذي هو أحد فروع بردى حيث كدت أغرق عدة مرّات بسبب التيّار؛ لولا تشبّثي بأغصان شجرة تين هائلة تحرس مقام أحد الأولياء هناك.

منذ أن بدأتا بتمييز الكلمات، سمعت أذناي كلمتين اعتبرتاهما مترادفتين: "لاجئ" و"القبّاعة". الأولى منهما ستصبح في سن المدرسة سببا لمعارك بعضها بالأحجار والمقاليع ضد أطفال فلاحي القابون، الضاحية الدمشقية التي يمر بها نهر يزيد. أما الثانية، فقد كانت فقرة إلزامية في كل حديث صباحي بين أمي وأبي في تلك الساعات المبكّرة بينما يعدّ هو القهوة، ثم يشربانها وكلّ يروي لصاحبه ما رآه من القبّاعة في منامه.

هل نستنتج إذن أن القبّاعة لا تنتمي إلى طفولتي البصرية ولكن السمعية، وأنني الآن في طريقي لسدّ هذا النقص؟ وأن هذه المهمّة ذات سمة وجودية، إذ أن "بطاقة الهوية" التي حملتها سبعا وثلاثين سنة كانت تعرّف "مكان الإقامة الدائم" بأنه القباعة- قضاء صفد، لتفريقه عن "مكان الإقامة المؤقت" الذي كان يتغير في كل مرحلة من العمر... وهذا لم يكن مطبوعا في تلك البطاقة فحسب، بل وفي القلب أيضا، فقد فشلت كل من سحم الجولان والقابون بالانطباع في قلبي ونجحت القبّاعة التي لم أر منها حجرا واحدا!

كانت السيّارة قد وصلت إلى نهاية المرحلة التي كنّا متأكدين منها بعد مقارنة خريطة إسرائيلية حديثة جدا بأخرى عمرها خمس سنوات. كان اللجوء إلى هذه الخريطة القديمة التي وضعها فلسطيني اسمه سلمان أبو ستّة ضروريا؛ لأن الخرائط الإسرائيلية لا تبين شيئا اسمه القبّاعة.

بدءا من هذه التلّة يمكن أن يكون أي حجر قبّاعيا. استبدلت السيارة بالقلب، والخريطة الورقيّة بخريطة الطفولة السمعيّة. عيناي عمرهما الآن دقيقتين. أحسست بجوعهما الجبّار. كيرقة عليها أن تلتهم من الغذاء بساعات ما يجعل جسدها يافعا لتستطيع أخيرا الطيران كفراشة. كانتا تلتهمان كل ورقة زيتون وترسلانها فورا إلى أرشيف الذاكرة. لا شك أن هذا الطريق جديد فالطريق الوحيدة التي كانت تصل القرية بصفد تمر من وراء الوادي. على التلة المجاورة، كانت تنتصب مستعمرة لا شك أن سكّانها هم من أرسل بقرهم يرعون في أرض القبّاعة؛ بل إنهم من الوقاحة بحيث بنوا سورا منخفضا حول القرية اضطررنا إلى فتح ثغرة في أسلاكه الشائكة لندخلها. زيتون قديم، بقر يرعى في كل مكان، حشائش وأعشاب وصخور...

نعم، هذه هي الأودية الأربعة التي تحدّث عنها عبدالله الرفاعي، وهذه هي "الصبرات"! ولكن أين

بيت جدّي الحاج حمّادة ذي القناطر؟ صحيح أنني أعرف من ذاكرتي السمعية أن عصابات الصهاينة نسفت القرية في الثمانية وأربعين، وأكمل لصوص آخرون العمل فنهبوا كل شيء ثم دمّروا آثار نهبهم، ولكن أين هي الأحجار؟

كنت أتخيّل أن أطلال بيوت الرفاعية والشواهين وعبد الغني والمحاحي وجماعتي المصاروة والحجّاج ستصيح بي من بعيد قائلة: "ميّل عليك الجيرة"، وأن أهلها سيتنازعون على شرف إكرام الضيف الذي غاب طويلا وعاد، وسيمطرونه بالأسئلة عن حال الأولاد ولماذا لم يحضرهم معه ليتعرفوا على ديرة الآباء والأجداد . . .

لم يصح أحد! فالأحجار نفسها سرقت.

انشغل "تومر" معي في البحث عن أساسات البيوت المنسوفة. وانشغل أنفي ويداي بالزعتر البرّي. . . عرّفت تومر على "الخرفيش" و "العلك" وكيف تؤكل. وأخيرا عثرنا على بئر سدّه جزئيا لوح من إسمنت يبدو وكأنه وقع عليه بفعل هزة أرضية. هناك استطعنا أن نرى أساسات لا شك فيها لبيت من حجر.

كانت تحنو على البئر شجرة تين ضخمة. ناولت الكاميرا لتومر. استندت إلى الشجرة وانفجرت بالبكاء.

لست أدري لماذا جنّت هذه السماء فجأة. صحيح أنها بدأت تمطر قبل أن ندخل القبّاعة. لكنّه الآن لم يعد مطرا؛ إنها مدافع مائية لم تجد عدوّا لها سواي والمسكين "تومر". كنت مصمما على البحث عن قناطر الحاج حمادة وعن معاصر الزيتون وعلى معانقة مياه "عين المقلد". . . لكنني الآن أتصبب ماء وحقدا. . . كدت أقول لتومر انظر ماذا تريد السماء فهي تتحدث اليوم بالعبرية! عدنا إلى السيارة خلال الضباب الكثيف الذي كاد يحجب عني قبّاعتي. قال لي تومر شيئا لكن البكاء المخنوق منعني من الرد. كنت أعرف أن هاتين العينين اللتين تبكيان ليستا لي. إنهما لأبي؛ أرى فيهما قبّاعتة التي مات يبكيها. لكن تلك كان فيها بيوت وقناطر ومعاصر. ماذا كان سيفعل المسكين لو رأى ما فعلوا بقبّاعته؟

كان أول ما قاله تومر في السيّارة: "هل تسامحني؟ إنني أيضا من أولئك الذين حرموك من القبّاعة".

في الساعة السابعة من صباح اليوم التالي كنت أكدّس أشيائي في الحقيبة بشيء من الجنائزية وكثير من التعب بسب عدم النوم، إلى أن عثرت في كيس بلاستيكي بجانب الكتب على حجر صغير وشتلتي زعتر بري؛ كنت قد أحضرتهما من القبّاعة. هنا توقّف الزمن قليلا، أو لعله عاد ستا وخمسين سنة تماما، هي عمري.

ترى من قال أنني غادرتها؟

الحاجة مليحة (أم كمال) تحمل صورة لزوجها المتوفي بذبحة صدرية بعد سماعه خبر هدم منزله في ١٤ كانون الثاني ٢٠٠٩. (تصوير: آن باك، activestills.org)

كنّا وما زلنا

إثنان وعشرون يوماً، خمسمائة وثماني وعشرون ساعة، ونحن...*

بقلم: محمود الكرد**

كم ستبدو كلُ تلك القياسات الزمني ضخمة! كم ستتمطى وتفرد ضفائرها على مساحة الصفحة! وكم ستغري أعينا على رفع ما يعلوها من حواجب! لكنها ستظل صغيرة، تنمو تحت سقف اعتبارات أكثر دقة، و أبعد أثراً، واشد نقاءً. وتظل "نحن" في الجملة أعلاه، أطول مسافة زمنية يمكن لها أن تعدو، أن تسبق عقارب الساعة، ودقات الحقيقة.

نحن، تحت وقع الحرب، في أقصى الجنوب الشرقي لهذا القطاع المسور، هذا الذي سلبوه قبل عقودٍ خلت، إخوته من قرى وحكايا، تركوه مبتور القرابة والجغرافيا، منفيا في وطنه الأم، فما كان منه إلا أن صمد، رفض قرارات التقسيم، وظل يحوطنا بيد، وبالأخرى يصد الأذى، فكان له عشقنا اللامحدود، وكان لنا منه ماءً، وبيتاً، وهواءً يزرع في رئتينا حنينا سرمديا للعودة.

ثلاثة اخوه كنا، وكان لنا أبٌ وأمّ، وجدة تسير بظل زيتونة.

بكل بساطة التعقيد كنا، أُمّاً برائحة العنبر، وأباً ينام في تقاسيم وجهه تاريخ وحاضر، وأحمد، هذه اللمسة الطفولية في بيتنا، وسلمى بأحلامها الشاسعة، ونيتها أن تسير على درب من سبقها

---

* القصة الصحفية الفائزة بالمرتبة الثالثة في مسابقة جائزة العودة للعام ٢٠١٠ – حقل القصة الصحفية المكتوبة. ويقول الكاتب عنها: مضمون القصّة ليس من نسج الخيال، وإن تغيّرت بعض الأسماء والأماكن، لكن تظلُّ الفحوى مقتبسة من واحدة من ملايين القصص الواقعيّة التي اكتظت بها نفوسنا نحن الغزيُّون إبّان الحرب الأخيرة على القطاع (٢٠٠٨-٢٠٠٩)، فكان أن شُذِّبت وقلمت أظافرها لتتماشى مع شروط المسابقة.

** محمود الكرد: من مواليد مخيم جباليا/ قطاع غزة، طالب في كلية الهندسة/ الجامعة الإسلامية.

إلى المجد، وتنجب تلك الزهرة التي سترفع في المستقبل القريب راية النصر. وكنت أنا، بأشيائي البسيطة، وعشقي لمظاهر الوطن في المخيم، وعلى رأسها جدتي.

بعد موجة القصف الأولى، بدأنا نبحث عن بعضنا، وبدأت أعيننا تبحث عن أي شيء مألوف. وبعد أن وجدنا أحمد العائد من المدرسة، ووصلت سلمى من جامعتها، أكملت أنا فسيفساء العائلة في غرفة جدتي، وتكدسنا سوية، ورحنا نلتمس ما يجري من المذياع، ومن اتصالاتٍ، كنا نجريها مع الأقارب، باءت معظمها بالفشل.

عندما بدأ القصف مجدداً، كان صوت جدتي أعلى وهي تغني لأحمد كي ينام. تربت على كتفه، فيتسرب إليه إكسيرها السري، ذلك الذي جعلها تقطع المسافة من قريتها في بئر السبع، إلى أطراف قطاع غزة الشرقية، دون أن تشعر بشيء من الهزيمة. "سنرجع"، قال لها والدها، وقالت لي الكلمة نفسها منذ تفتحت جوارحي على هذا اللجوء المصبوغ بالأزرق.

أدركنا بعد ذلك، أن القصف ليس كل ما في جعبتهم، وأن حرباً تشن علينا، وأن أقوى الصواريخ وأحقرها، قد هوت من كل مكان لتمعن في أجسادنا تمزيقا. وكان أن أصبح قطاعنا وجها لوجه، مع عدو شرد قبل ستين عاما أنجب ثلاثة أرباع قاطنيه، ولحقهم هنا، ليتمادى في لؤمه وطغيانه. شعرت بكل شيء في مخيمنا يغضب، المسجد والدوار. . . حتى قطط الشوارع، ما أن خرجت باحثا عن بطاريات للراديو، حتى رأيتها تمشي بحذر، وكأنها تستعد لطرد العدو القادم.

وبينما كان هاتف أبي المحمول، يلفظ أنفاس بطاريته الأخيرة، جاء اتصال الصليب الأحمر، بعد أسبوعين قضيناهما في قراءة القرآن، وفي الاستماع لجدتي تستذكر مفاتن حقلها، وباب بيتها الذي تركته مواربا، لكي لا تواجه عناء فتحة عند العودة. لم تعد جدتي بعد قليل من الوقت كما قالوا لها، وأخبر الصليب والدي أن الإخلاء هو الوسيلة الوحيدة للهروب من هذا الكره المسلح.

تغيرت الإطلالة، لكن النافذة لم تتغير. كانت نفس النافذة التي تطل على شارع المخيم الرئيسي، والتي كنت أحيي منها أصدقائي وأهلي، فتحتها اليوم، لأرى الجميع قد اجتهد في حمل ما يمكنه

حمله، وأمعن في السير هرولة، صوب الغرب. رأت أمي ما رأيت فشجعت أبي على أن نحذو حذوهم، هو الذي يرفض إلى هذه اللحظة، فكرة أن يصبح لجوؤه لجوء تربيع.

في اللحظة التي يجتمع فيها الوطن، مع جدتي وأبي، فإن العناد يحقق أعلى القيم، يصبح متمرساً، وتكبر عضلاته. هكذا كان الأمر يوم الخميس، رغم توسلات أمي، ونصائحي التي اكتست بثوب المنطق في هذه الفوضى، رفض أبي الخروج من البيت، وغنت جدتي على ليلاه، فقررا المكوث معاً، وضمنا، الشهادة معاً.

حملت أحمد على كتفي، وقبضت على يد سلمى التي كان نصفها في حضن أمي المرتبكة، وخرجنا في الساعة الرابعة، بعد أن دخل وقف إطلاق الحقد حيز التنفيذ. ودعنا أبي وجدتي، وكان الاتفاق أن نلتقي في وسط البلد، ونظل إلى حين ذلك - بطريقة ما - على اتصال.

مدارس الانروا، النوادي الرياضية، الجمعيات، صالات الأفراح، كلها آلت إلى منازل، إلى حضن كبير ضم وجوها متشابهة، وفي مدرسة ابتدائية، كان لنا حيزٌ بقينا فيه، وعلمنا فيه من مذيع الأخبار الأنيق، أن أوراق "رزنامة" الحرب، بدأت تنفذ.

عدت من نفس الطريق، من طريق يحفظها الفلسطيني بالفطرة، طريق يحمل فيها أحلامه ومتاعه ويرحل، عدت منها إلى بيتنا في وقت الهدنة، للاطمئنان على والدي وجدتي، وتوصيل ما حملتني أمي من غذاء، ودعوات طرزتها بأقدس الكلمات.

كانت تضمه، رأيت والدي في حضنها طفلاً صغيراً، ينقش على كل حجارته حق العودة، يعلو في صوته الرفض، ويخاطبني ممازحاً بعدما أن أخبرته أن غداً اليوم الأخير للحرب، أنه يملك الآن قصة مضادة لقصة هجرة أهله، قصة صموده هو.

قي اليوم التالي، نفضنا الرماد، استقامت ظهورنا، وتأكدنا من خرائطنا، لا لم نتراجع ولو شبراً، كانت كل تنقلاتنا تكتيكية، لن نحرج أصحاب اللغة باختراع لفظ على وزن نكبة ونكسة، سنشغلهم بكلمات أكثر قوه وثباتاً.

عدت بأحلامي، وأمي، وإخوتي إلى ما تبقى من البيت، وفي طريق العودة، رحت أفتش عن أماكن في المخيم، أين دخنت سيجارتي الأولى، وأين غمزت لابنة الجيران أول مرة، وأين حكت لي جدتي كيف يقطفون الزيتون؛ كان كل شيء موجودا في داخلي، وإن محته آلة الحرب، عزمت على بنائه من جديد.

بعد اثنين وعشرين يوما؛ خمسمائة وثماني وعشرين ساعة، ثلاثة إخوة كنا، وكان لنا أم، وجدة تدفن ابنها، وتزرع أمام البيت زيتونة.

بدو عرب الجهالين (لاجئون منذ العام ١٩٤٨)، لا يزالون يواجهون معاناة التهجير القسري
(تصوير: آن باك-مركز بديل)

قالت لي امرأة وغابت*

بقلم: محاسن البرغوثي**

"لا تفقدي نفسك قبل أن تستنفذي الأسلحة"، قالت لي امرأة وهي تغادر الفسحة الصغيرة أمام مكتبي نحو مكتبها المجاور. لم تكن جملتها لتعني شيئاً لو لم أكن أعرفها، امرأة فولاذية، مستبدة، تسعى بكل الطاقات الممكنة وغير الممكنة حتى تحقق حلماً استوطنها فتاهت عنه في زحمة المشاغل، وصار همها الحفاظ على مصنع للأدوية ليس به أدنى شبه من مصانع الأدوية سوى بالاسم، فلا شكله ولا نظافته، ولا حتى المعايير المستخدمة في التوظيف فيه، المعيار الوحيد الذي كان مستخدماً هو كم سيوفر هذا الشخص على هذه المرأة.

امرأة بجمال ساحر على الرغم من أنها كانت تغادر الأربعين بخطى غزال. كانت صاحبة عز وجاه، وقسوة قد لا تغتفر. لم يستطع قلبي الطفل الذي يبلغ ريعان الحلم بعد أن يفهم قدرة هذه المرأة على المناكفة من اجل شواقل معدودات، وهي التي تملك، والملك لله، كل ما يحلم الإنسان أن يمتلكه: بيت كبير وأنيق، وسيارة فارهة، وزوج يحبها أو هكذا يدّعي، وأبناءً رائعين.

كانت صاحبة المصنع الذي أعمل به كمديرة مكتب، أو بالأحرى الذي عملت به لمدة شهر واحد فقط؛ لأنني لم أقوَ على احتمالها أكثر. وهناك تعرفت على الصديق الفنان حسين نخلة الذي لم يقوَ على احتمالها أيضاً؛ فغادرها بغير أسف، وبحث عن مساحة تحتوي فنه بعيداً عن عالم يتعامل مع كل شيء بلغة لا يتقنها، لغة ليست له.

---

* إحدى القصص الفائزة بجائزة تقديرية في مسابقة جائزة العودة للعام ٢٠١٠، حقل القصة الصحفية المكتوبة.

** محاسن البرغوثي: حاصلة على درجة الماجستير في التنمية المستدامة من جامعة القدس/ ابو ديس. تعمل حالياً مديرة دائرة الرقابة الإدارية/ ديوان الموظفين العام.

لم تكن هذه المرأة تعرف كيف تبتسم؛ "فلم يزهر اللوز أكثر"، ولم تعرف كيف تبكي، فقد أحاطت نفسها بذاتها وتقوقعت فيها. امرأة ذات سطوة تفرضها عيناها الواسعتان كبحر من حشائش، بين الزرقة والخضرة، بين البيارات والبحر، عينان تحملان خريطة ووطن، كانت عيناها خريطة.

لم يكن أحد من موظفي المصنع الذي تديره، "الذين كنت أحدهم"، يصدق أن لهذه المرأة مشاعر كبقية البشر. وكان ذلك محط نكات وحديث دائم في المصنع، قسوتها، وخوف زوجها منها، والرعب الذي تعانيه بناتها الثلاث الشابات وطفلاها الصغيران، كل شيء ينبغي أن يمر تحت قلمها؛ لتوقعه مهما كان صغيراً. فهي لا تترك مجالاً للثقة بأي احد؛ حتى أقرب المقربين، وكان ذلك يحيرنا جميعاً؛ فكيف لامرأة بهاتين العينين أن تمتلكا كل هذه القسوة؟! كيف لامرأة تحاكي أناقة الربيع أن تعصف بهذا البرد؟!

عملي في مكتبها فرض علي احتكاكاً يومياً أورثني قناعة بأن هذه المرأة لا تشبه البشر؛ فالبشر يفرحون أو يحزنون. فالحياد في رأيي نظرية غريبة لا تتعلق بالبشر، فلا حياد في المشاعر؛ إلا في ظل عدم وجود المشاعر. لم أكن قد غادرت عامي التاسع عشر، إذ عملت لديها مباشرة بعد إكمالي الثانوية العامة، وقبل التحاقي بالجامعة، ولم أكن قد تخلصت من رغبة الاكتشاف الطفولية التي تستوطنني، فلم أستطع التخلص من الكثير من الأسئلة التي حاول زملائي في المصنع ثنيي عن اكتشافها، بنصحي بالابتعاد عنها فهي امرأة بلا مشاعر، أنها "جبارة" كما يقولون.

هل كانت امرأة ككل النساء؟ لم أكن أعرف؛ فلم أكن قد اختبرت الدنيا، ولم أكن قد تعرفت على الكثير من النساء غير أمٍّ حنون لا تشبهها. لعلها تكون نمطاً أمومياً مختلفاً، وربما تكون طريقة أخرى في التربية، غير أني كنت أرى الرعب يسكن عيني طفليها إذا جاءا طالبين منها بعض نقود لمصروف طرأ فجأة، أو شيء اشتهوه بهوس الأطفال لما يريدون.

قلت لها، إذ قررت أن أعفي نفسي من إرهاق احتمالها، وأن أمنح نفسي فسحة من الأمل فنحن دوماً وفي أحلك الظروف "نفعل كما يفعل السجناء... نربي الأمل": أنا أغادر هذا العمل، فانا لا أقوى على احتمالك، أنت امرأة على وشك الضياع منك، فلا تضيعي ما لم يستحق الضياع ما تضيعين له.

قالت لي: "امرأة"! وغابت "في ممر ذاكرتها اللولبي" نحو انطلاقات طفولتها الأولى، نحو ذاكرة بعيدة كانت حينها ابنة لمزارع يزرع البرتقال في بيارة مترامية الهوى بين "فراشتي غمازتين" في وجه يافا.

قالت لي المرأة الغريبة في لحظة انفجار الذكريات:

خرجت طفلة لم أتعرف من الدنيا إلا على ساحة منزلنا وبيارتنا، في يافا الجميلة؛ طفلة مدللة ذات حظوة بين أب مقتدر وأم حنون وإخوان محبين، إلى جوع وتشرد وقهر، وانقلاب الحال. الأم الحنون صارت امرأة نواحة دائمة النحيب، والوالد المقتدر الميسور الحال أصابه الشلل من هول ما أصيب، كنا أطفالاً لم نعرف من خير الدنيا أو شرها أي شئ، ما حل بنا أورثني قسوة جعلتني حاقدة على نفسي قبل الآخرين، أخاف من جور الدنيا مرة أخرى علي وعلى أبنائي، فأحميهم بطريقتي.

لو أنك تعرضت لما تعرضت له، لو أن البرد كوى عظامك ووالدك يجرك من مكان لمكان يسأل الناس الطعام والشراب، ولو انك عشت دهوراً تنتظرين أن يحن عليك بعضهم بطرد فيه علبة سردين، أو بعض الطحين لعرفت لما أنا أتحول وحشاً كاسراً إذا أحسست الضياع يدق بابي وباب أبنائي.

ما كنت أعلم أن حياتي تسير ببطء لتستقر في جزء بعيد من الوطن يفقد فيه الشخص اعتباراته الإنسانية ويتحول رقماً على قائمة لا تنتهي من المصطفين على أبواب "كرت التموين"، ما أنا نتاجي ولكني نتاج تمزيق الخريطة، الخرائط الممزقة تنتج نفسيات ممزقة، تخشى الالتحام، لذا الوحدة تحجب عني ألم التمزق من جديد، إقصائي للبقية خوف من فقدهم كما فقدت برتقالاتنا في يافا، فقدت الأب الذي انهار فجأة أمامي من مارد قوي صار لاجئا ضعيفا لا حول له ولا قوة.

أطرقت بصمت على طريقتي في امتصاص المواقف التي تربك توقعاتي، والتي تربك لذتي الدفينة في إيصال الأشخاص لذروة الاعتراف، والتخفيف، فكم كنت أشفق على قلبها المحاط بالصدأ، وأتمنى لو أنها تفيض بما يفيض من قلبها.

لم أكن أكثر من حلم يعيش ليكبر؛ فتحولت لجرح مزروع في قلب كل من يتعامل معي، أخاف ظلم الدنيا مرة أخرى علي وعلى أبنائي وأريد أن أغادر الدنيا وقلبي يعلم أنهم لن يتعرضوا لما تعرضت له، لن أتركهم طريدة الضياع والجوع والقهر والخيم مرة أخرى.

سكتت المرأة لولبية الذكريات وتحدرت دمعة لؤلؤية من بحر البيارات الذي يسكن عينيها وقالت:

أبي حرّم البرتقال على نفسه بعد أن خرجنا من يافا، لم يذق برتقالاً بعد خروجنا من يافا، وأجهشت بالبكاء.

قالت لي امرأة وغابت في ضباب طفولتها التي أعادتها للمس الجرح الذي عانته مثلما يوم التشرد كان:

البرد ينخر العظام، والشمس تحرق الجلد، والسير بلا هدف ولا بوصلة، نسير... لا ندري إلى أين وإلى متى نسير.

قالت لي:

لو أننا لم نفقد أنفسنا قبل استنفاذ الأسلحة؛ لكنت اليوم عجوزاً أجلس في بيارة كانت لأب تركها ورحل، أربي أحفادي الصغار على فسحة من الأمل، لكنت أزور قبره في بيارتنا الممتدة على امتداد الروح والساحل، لكان للبرتقال طعم أجمل.

اقتربت من المرأة شديدة القسوة وحضنتها مخفية دموعاً لم تقوَ على مقاومة المشهد، لا زالت طفلة لم تخرج حتى الآن من بيارات يافا. لا زالت طفلة، هذه المرأة شديدة القسوة، شديدة الرقة، لم تبتسم ولكن اللوز أزهر أكثر.

مخيم جباليا، قطاع غزة، ٢٠٠٩ (المصدر: freegaza . org)

جدتي: ما بين شظايا المعاناة وحلم العودة*

بقلم: شادية سليمان**

"صوت صراخ يعلو في السماء" . . . هكذا بدأ اليوم في مخيم جباليا بتوقيت ظهور الشمس على هذا النبأ، وخلف الشبابيك يهطل ذلك الحزن . . . إنه رحيل جدتي .

ثلاثة وثلاثون عاما من حصالة عمرها انتهت بها إلى آخر المحطات، بعد أن خاضت حياة مليئة بالمعاناة، كان آخرها حرب غزة .

مضت الأيام الثلاثة وانفض بيت العزاء، وكلٌ ذهب إلى منزله .

لم استطع في تلك الليلة النوم، فقد هزت الريح صوتها، وارتاب قلبي كثيرا؛ وقتها تسللت خفية إلى صندوق الذاكرة، ورجع بي الزمن إلى تلك القصص .

جدتي أنا هنا، لا زلت أجوب شوارع الماضي، واستمع لك .

بدأ عداد الأيام يسير حتى التاسع من مارس، ذكرى رحيل جدتي الأربعين، لم يكن هذا اليوم يسري كغيره، فهناك طقوس معتادة لا زالت حية، تجمع الأخوة والأخوات لينطلقوا إلى مقبرة بيت لاهيا . أما أنا فعمدت بدلاً عن ذلك إلى تسجيل آخر معاناة لها على الورق؛ لعل رائحة غيابها تعلق بين

* إحدى القصص الفائزة بجائزة تقديرية في مسابقة جائزة العودة للعام ٢٠١٠، حقل القصة الصحفية المكتوبة .

** شادية سليمان: من مواليد مخيم جباليا/ بلوك ٢، قطاع غزة، حاصلة على شهادة دبلوم متوسط، إدارة مكاتب وسكرتاريا تنفيذية من الجامعة الإسلامية .

سطوري. فهي ما زالت في مخيلتي ماكثة في هذا الركن من منزلنا على كرسيها المتحرك، بعد أن نجت من موت كاد يقتلع روحها في أحداث حرب غزة لعام ٢٠٠٨-٢٠٠٩، أو محرقة غزة. . . أو ما لا ادري؛ فالمسميات كثيرة!

أذكر تماما ذلك اليوم، عندما دخل علينا والدي ووجهه ينبئ بشيء ما، قالت له أمي:

- هناك أمر ما، ماذا حدث؟

-

خاط الصمت فم والدي لوقت قصير جداً، ثم نطق قائلا:

- أُمي محاصرة هي وجمال، العم الأصغر، وقد اتصل بي أخي و أخبرني أن لا أحد يستطيع أن يذهب إلى تلك المنطقة، فكل شيء يتحرك يطلق الجيش عليه النار، حتى سيارات الإسعاف. أما الصليب الأحمر عندما اتصلنا عليه لنطلب العون، أخبرنا أنه لا يستطيع المجازفة والذهاب إلى تلك المنطقة المعزولة دون تنسيق مع الجانب الإسرائيلي.

مضى أسبوع كامل ولم تصل أخبار عن جدتي وعمي، كل ما كان يصلنا هو قصاصات من الأخبار لا نستطيع تأكيدها. بعض الأشخاص الذين استطاعوا أن يلوذوا بالفرار من تلك المنطقة قالوا بأنهم تركوها كالأرض المحروثة، سويت فيها المنازل بالأرض، وأنباء عن شهداء لم تستطع سيارات الإسعاف الوصول إليهم.

أشرقت شمس يوم الاثنين، الخامس من يناير لعام المحرقة، وإذ بالأخبار تصل إلى البيت، جدتي في الطريق إلى منزلنا بعد تلقيها العلاج في مستشفى كمال عدوان.

مضت ساعة من الوقت، وإذ بوالدي يقوم بفتح باب المنزل بأكمله حتى يتسنى له هو وأخي وعمي حمل جدتي بكرسيها المتحرك إلى الداخل.

لن يفارقني أبدا هذا الجزء الهش من المشهد، عندما تجمعنا حولها وأخذنا نسلّم عليها، وعندما رأيت تلك الطمأنينة التي شقت طريقها إلى وجهها المثقل بالخوف والهموم، وتلك الدموع الهاربة بابتسامة نطقت بها شفتها المرتعشة.

تنفس الجميع الصعداء في تلك اللحظات، لشعورهم أنها قد أصبحت "بأمان"، على الرغم من أن منزلنا يقع في منتصف مخيم جباليا المستهدف؛ فلم نكن أفضل حالا، فأغلب السكان من حولنا رحلوا تاركين منازلهم هرباً من الموت الذي تفشى في أزقة المخيم؛ بل في كل ركن من غزة، ذاهبين إلى مدارس وكالة الغوث، ظناً منهم أنهم سيحظون ببعض الأمان الذي افتقدوه في منازلهم.

بعد أن حظيت جدتي بقسط من الراحة، نادت على أختي الجالسة بالقرب منها قائلة:

- يا ستي قوميني بدي أشرب.

كنت أقف على الدرج أحاول مراقبة الطائرات التي لم تكف عن التحليق في السماء، ورصد بعض الأهداف لتنفث سمها هنا أو هناك. عندما رأيت جدتي تحاول أن تضع قدمها اليسرى التي أصيبت برصاصة على كرسي آخر في محاولة منها لالتئام الألم وتحمله، نزلتُ بسرعة لأساعدها.

جلس الجميع من حولها، وبدأنا بسؤالها عما حدث:

- إنها أيام عصيبة، نكبة جديدة، لم نكن نتوقع أننا سنبقى على قيد الحياة،

أكملت قائلة:

منذ بداية العدوان لم يتوقف ضرب القذائف على المساكن والأراضي الزراعية المحيطة بمنزلنا، ولم تفارق الطائرات الأجواء، كان من الصعب علينا الخروج، مكثنا في الغرفة طوال الوقت فهي أكثر الأماكن أمناً في المنزل، مضى الأسبوع وبدأ الوضع يتأزم أكثر...

كنا ننتظر بزوغ الشمس بفارغ الصبر، فالليل يتحول إلى كابوس تحوم به الأشباح ويسوده صوت هدير الطائرات والآلات العسكرية الإسرائيلية...

لقد كنت أتحدث مع جمال في ذلك اليوم، وفجأة سمعنا صوتاً قوياً واهتزت الجدران من حولنا، وبدأ الرصاص يخترق المنزل، فخرج جمال وعاد مسرعاً وبدأ يدفعني إلى خارج الغرفة، شعرت وقتها أن الموت بدأ يقترب منا، فصرخت في وجهه قائلة: روح يما... سيبني في الدار واطلع، اشرد يما....

رد علي قائلاً:

- مش رح أسيبك لو بدي أموت... شو بتحكي انتي!

صرخت في وجهه مرة أخرى قائلة :
– أنا عجوز يما مش ضايل في عمري كثير معلش لو متت، بس انتا وراك اولاد محتاجينك .

لم يعط لكلامي أي اهتمام، ودفعني بكرسي المتحرك وخرجنا من المنزل وسلكنا طريقا ملتويا حتى لا يلمحنا الطيران الذي يتربص بكل شيء متحرك .

كانت الشوارع المحيطة فارغة إلا من صوت القنابل والرصاص، كأنها أرض مهجورة سنين طويلة ولا يقطنها بشر، أو أن زلزالاً أتى عليها فقلب "عاليها واطيها" .

تابعنا السير والخوف يسكن بداخلنا، وكلما كنا نبتعد أكثر أصبح الرصاص يقترب ويزداد، وكأنهم ينتظرون خروجنا، ويتعمدون إطلاق النار علينا . ونحن نسير، لم ألحظ أبداً أن هناك رصاصة اخترقت قدمي اليسرى إلا عندما نبهني ابني بأن هناك دماء تسيل من قدمي بشكل كثيف .
توقف عن دفعي، وطلب مني أن أخلع منديلي الصغير الذي كنت أرتديه على رأسي تحت شاشتي البيضاء، وقام بالضغط على جرحي ثم عصبه بالمنديل و أصبح يطمئنني بأن الجرح بسيط .

– يا ناس، يلي هان الحقونا، يا ناس، يا صحاب الدار . . .

وإذ برجل يقف خلف باب المنزل وينظر من شقه بحذر شديد، ثم قام بفتح الباب وادخلنا عنده بسرعة .

في الداخل دار بيننا وبين أصحاب المنزل حوار بسيط، وكانت الدهشة تعتلي وجوههم، وذلك بسبب استطاعتنا النجاة من منطقة سكننا .

عند بزوغ شمس اليوم التالي خرجنا جميعاً، أنا وجمال وأصحاب المنزل، فتلك المنطقة لم تعد آمنة .

حملنا بعضاً من أعواد الخشب وربطنا بها قطع قماش أبيض، دلالة على أننا أشخاص عزل لا نحمل

أي سلاح . وبالرغم من ذلك ونحن نسير أطلق علينا الرصاص، قطعنا مسافة ونحن نسير على أقدامنا وأجسادنا هزيلة يحفها التعب والخوف القلق . كان جمال يدفعني لبعض الوقت، والرجل المصاحب لنا دفعني لبعض من الوقت أيضا ليرفع الحمل عن ابني . بعد مدة من السير وصلنا إلى الشارع الرئيسي لبلدة بيت لاهيا، كانت سيارات الإسعاف تصطف على الجوانب وحركة الناس قليلة . ودعنا الرجل المصاحب لنا هو وأسرته، وركبنا سيارة الإسعاف وذهبنا إلى المستشفى .

توقفت جدتي عن الحديث بتنهيده، ثم تابعت تقول :
– هذه الأحداث عادت بي إلى أيام نكبة الثمانية والأربعين، عندما هُجرنا من أراضينا، لم أكن أعلم أنني سأخوض تجربة الهرب من الموت مجدداً .

تلك الأحداث القديمة تتدافع الآن في مخيلتي فهي عالقة في ذاكرتي وكأنها حدثت بالأمس . أكثر ما أذكر منها هي أم حسان التي زحفت على الأرض إلى أكوام الحطب واختبأت بينها خوفا من الموت الذي اقتلع روح ابنها وزوجها أمام عينيها ولم تستطع أن تتحرك من مكانها حتى لا تلقى نفس مصيرهم، لقد كانت تجلس معنا بنفس الخيمة حين ذاك .

لقد تركنا كل شيء على أمل أن نعود إليه في يوم ما، فقدنا أشخاصا كثرا، ولم نسمع عنهم أي خبر حتى الآن .

وأخذت تهمس ببعض الكلمات التي اخترقت أذني بقوة قائلة : "معقول في يوم راح نرجع على أراضينا وبيوتنا . . . سقالله على هذيك الأيام" .

انقطع حديث جدتي، وأخذت تغفو على كرسيها وهي تضع يدها على رأسها . فجأة دب الهلع في أزقة المخيم، والأصوات أخذت تتعالى في الخارج، أخرجوا من المنزل بسرعة . . .

لم نفهم ما كان يدور حولنا من اللحظة الأولى، إلا أن ابن الجيران قال لنا وهو يصرخ بصوت مرتفع : "هناك إنذار بقصف المنزل المجاور لنا" . فدخل والدي مسرعا واتجه نحو جدتي التي لم تعلم بعد ما الأمر، وبدأ يدفع بكرسيها إلى خارج المنزل بسرعة، وساد المنزل الفوضى .

كنا نصرخ على بعضنا البعض حتى نسرع الخروج من المنزل، مرت خمس دقائق وقد كنا ابتعدنا قليلا عن المنزل وإذا بصوت يخترق سماء المخيم، انه صاروخ أطلقته الطائرة واتجه إلى ذلك المنزل.

ابتعدنا كثيراً عن منزلنا وعم الأرجاء أذان المغرب. مكثنا تلك الليلة في منزل احد الأقارب الذي كان فارغا من أصحابه، فقد هربوا منه خوفاً من شظايا القنابل التي كانت تتطاير عليهم من الصواريخ التي تطلقها الطائرات على مساحة الأرض المزروعة بجانبهم. وفي الصباح عدنا إلى المنزل، وجدنا كل شيء على حاله ولم يتضرر المنزل.

لم تمض على هذه الأحداث سوى ثلاثة أيام. وفي اليوم الرابع ليلاً ذهبت جدتي إلى المستشفى مرة أخرى لمحاولة إنعاشها من الغازات السامة التي استنشقتها بفعل القنابل الغازية التي ألقاها الجيش الإسرائيلي على المخيم وانتشرت في المنزل بشكل كثيف.

مضت الأيام، وأقدام الساعة تمشي هزيلة ومسلسل المعاناة يسري على قطاع غزة بأكمله. لقد كنا نستقي من السماء بعضاً من الأمان لتتسلل داخلنا رائحة الأمل بنكهة القناعة والرضا.

انتهت حرب غزة، وما انتهت حكايات جدتي التي ظلت كانت تردد ما عانته طوال هذه الفترة لكل شخص يقوم بزيارتها. عادت إلى منزلها، وكان الأمل مرسوما على جبينها بان تعود يوماً إلى بلدتها الأصلية (المجدل) وتدفن هناك. رحلت جدتي، وبقي صدى صوتها ملتصقاً بالجدران يحكي حكاية التهجير وحلم العودة.

هكذا هم يرحلون. . . يرحلون وروحهم معلقة بالعودة.

أطفال مخيم عايدة للاجئين يحيون ذكرى النكبة ال٦٠
من خلال إطلاقهم طائرات ورقية، بيت لحم ٢٠٠٨
(تصوير: ريتش وايلز)

شحنة من الأمل*

بقلم: ميسون أسدي**

"يا طيارة في السما، سلمي على عمي صالح وقوليلو مشتاقين نشوفك بينا. . ."، هكذا كنا نهتف ونحن صغار، كلما حلقت طائرة فوق سماء بلدتنا دير الأسد؛ نترك كل ما بأيدينا، نتوقف عن اللعب ونلاحق الطائرة بهتافنا الطفولي. وعند صبيحة العيد كنا نهرول بملابسنا الجديدة، إلى جدنا محمد طه، أبو صالح، المقعد في فراشه؛ فنتسابق فيما بيننا قائلين: سيدي، كل عام وأنت بخير، ان شالله السنة الجاية بتشوف عمي صالح.

عندها، كان يعطي كل واحد منا بضعة قروش، نأخذ القروش ونطير غير آبهين لجدي أو لعمي صالح، كنا نعرف بأن هذه الجملة هي كلمة السر لإخراج القروش من جيب جدي.

علمت بأن لديّ عم أسمه صالح، وأنه غائب، وكان أبي عندما يريد أن يؤكد على صدق أقواله يُقسم: "وحياة غيبة أخي صالح".

اعتقدت بأن الطائرة توصل النداء لعمي لكنه لا يستجيب لندائنا. . . وفي مرّة، سألت والدي:

- أين يسكن عمي، ولماذا هو غائب، ولما لا يأتي لزيارتنا؟

---

* إحدى القصص الفائزة بجائزة تقديرية في مسابقة جائزة العودة للعام ٢٠١٠، حقل القصة الصحفية المكتوبة.

** ميسون أسدي: كاتبة وصحافية من قرية دير الاسد/ الجليل الاعلى، تعمل كمديرة لوكالة "تفانين للإعلام الفني والثقافي الفلسطيني". لها العديد من القصص التي نشرت في الصحافة الفلسطينية والعربية العالمية. حائزة على جائزة «العودة» لقصص الأطفال- ٢٠٠٨.

ضمني والدي إلى حضنه وربّت على كتفي قائلا:

- ولد عمك صالح، في قرية دير الأسد، وهو البكر لعائلتنا المكونة من خمسة أخوة وأربع أخوات. قتلت والدتنا وهو يبلغ ١٣ عاما على أيدي لصوص جاءوا ليسرقوا غلالنا ونحن نفلح الأرض في قرية الكساير، حيث رحل والدي برفقة العائلة إلى الكساير لخلاف مع عائلة أخرى.

ويتابع:

- اضطر عمك صالح أن يعمل في سن مبكرة ويعيل عائلته، فعمل مع أخواله من بيت "الحنفي" وبيت "الشحبري"، وهم يقيمون اليوم في مدينتي نابلس وشفا عمرو، فكان تاجر حبوب وسمانة، يصدر الحبوب ومنتجات الألبان والزبيب والملبس، ويبيع من الطعام كل ما هو دهين وطحين وحلو وكان يُعرّف بـ "بائع الملبس".

امتاز أخي بهدوئه واتزانه وحبه للآخرين، ذو عقل واع وفكر مستنير، وكان ذا ملامح تبعث الطمأنينة إلى النفس، استأجر دكانًا صغيرًا في "سوق العتم" في مدينة عكا، راجت تجارته وعشنا في بحبوحة، وتمتعنا بخيرات الحياة. تزوج جدك من امرأة قاسية القلب، فبات لنا صالح بمثابة الأم الحنون، وخاصة لأخواتي البنات اللواتي ما زلن حتى يومنا هذا يذكرن طيب خلقه.

أراد عمك أن يوسع تجارته، فسافر إلى لبنان ليصدر بضائعه. وفي عام ١٩٤٨ سقطت فلسطين في أيدي اليهود، وأغلقت الحدود، ومنع من الرجوع إلى الوطن. اعتقل جيش الصهاينة جميع الشباب الفلسطينيين ومن ضمنهم إخوتي وأنا، وهكذا زجوا بنا في المعتقل، لمدة ستة أشهر، وهربت نساء القرية إلى القرى الدرزية المجاورة، واحتمين في بيوتها، وقسم آخر شرد في «الوعور» والجبال في انتظار خروج الجيش من قريتنا.

عاش عمك وحيدا لفترة قصيرة في مخيم عين الحلوة، بلا عائلة ولا أقارب. شعر بالضياع، فتزوج فتاة لاجئة من قرية الجديدة الواقعة في شمال فلسطين، اسمها «هنية» وكانت مخطوبة لابن عمها، وهربت مع والديها وإخوتها إلى لبنان في مخيم عين الحلوة، الذي حضن أهل الجليل الأعلى ومنهم أهل دير الأسد، وأنجبت منه ثمانية أبناء...

في أزقة مخيم عين الحلوة، أوقف الأطفال لعبهم وركضوا وراء الطائرة المحلقة وبدأوا يهتفون بأعلى صوتهم: " يا طيارة في السما، سلمي على جدي محمد طه وأعمامي وعماتي في دير الأسد وقوليلهم مشتاقين نشوفكم . . . ".

من بين هؤلاء الأطفال كانت طفلة، تعرف جيدا، أن لها جدًا وأعمامًا في دير الأسد، وقد عرفت ذلك من والدها صالح، الذي كانت ترافقه في زيارته المتكررة لأهل المخيم وخاصة أهل بلدته، وكان يصر على توثيق صلته مع أهله في فلسطين وتوثيق علاقته بأهل المخيم فيهنئهم في الأعياد، ويزور المرضى ويساعد المحتاجين.

وذات مرة أخبرها والدها، بأنهم سيسافرون إلى قبرص ليلتقوا مع أعمامهم وأولادهم هناك. كادت الطفلة تطير فرحًا . . .

كان اللقاء حميمًا وقاسيًا ومؤثرًا . . . عندها تساءلت الفتاة:
- لماذا لا نستطيع زيارتهم في بلدنا دير الأسد؟
فأجابها أحد الأعمام والدمعة تكاد تقفز من عينه:
- منذ عام النكبة، أو بالأحرى عام المذابح، ونحن نحاول ذلك، وأملنا بالله كبير . . .

أقترب العم صالح من أخيه وهمس في أذنه:
- سأزوج ابنتي لأبنك.
ورغم معارضة زوجته وبعض أبنائه على هذا الزواج، خوفا من تشتيت العائلة مرّة أخرى، إلا أن العم صالح أصر أن يزوج صغرى بناته لابن أخيه حتى يحافظ على صلة قوية بين أبنائه وفلسطين. وهذا ما حصل، حيث تزوجت صغرى بناته ابن عمها وسكنت في مسقط رأسه، قرية دير الأسد في الجليل الأعلى.

في أحد الأيام، نظر العم صالح إلى زوجته، وهو يلف سيجارته، أشعلها وأخذ منها نفسًا، ثم قال لها وكأنه يستشيرها في الأمر:
- يجب أن نرحل من لبنان!

زاغت عن الجواب، لم تدر "هنية" ما تجيبه، وتدحرجت دمعة سخية من عينيها. كان صمتها علامة الموافقة المرغمة، ففي حرب لبنان عام ١٩٨٢، عندما غزت إسرائيل لبنان، وعصفت به وحولت أراضيه إلى ساحة قتال، وحاصرت منظمة التحرير في بيروت الغربية، وبعد المجازر التي ارتكبت بحق اللاجئين الفلسطينيين، آثر العديد من اللاجئين الهجرة مرّة أخرى إلى بقاع الأرض في شتات آخر، فمنهم من اختار تونس وبعضهم رحل إلى الأردن، أو غيرها من البلدان العربية والأجنبية؛ لكن العم صالح، قرر الرحيل مع زوجته وأربعة من أبنائه إلى القاهرة للعمل مع تجار من غزة هناك.

كانت لحظة الفراق مؤلمة جدا؛ فحتى العم صالح، بكى ألمًا، معصور القلب، وهو يعانق من بقي في لبنان. وازداد إحساسه بوحشة الوحدة والغربة، ولم يكف أبناؤه الشباب عن النظر إلى الخلف، حتى وهم يصعدون إلى الطائرة ويجلسون على مقاعدها... وكان هذا هو الرحيل الثاني للعائلة.

قضت العائلة تسعة أعوام في القاهرة، وتمنى العم صالح الموت عشرات المرات لتعثر حظه والحياة المرة التي قضاها هناك، بعد العز الذي عاشه بعرق جبينه في لبنان.

خلال ذلك، قرر تسفير ولديه لطلب العلم في بلاد العم سام. وفيما هو يرافق احد أبنائه إلى المطار، أصيب بحادث طرق أودى بحياته، وابنه ملقى بجانبه يصارع لحظاته الأخيرة، وبعد مرور سبع ساعات على الحادث جاءتهم سيارة الإسعاف، وتم إنقاذ الابن بعد أن سُرق كل ما بحوزتهما!

دفن العم في القاهرة، وعادت زوجته وابنها البكر إلى بيروت، وكان هذا هو الرحيل الثالث للعائلة.

لم تصدق «هنية» ما سمعته من ابنتها عبر الهاتف، خاصة أن العائلة ما زالت تبحث عن الاستقرار وكيفية التأقلم في بيروت من جديد.

– أمي، لقد تم طردنا من الكويت، سأذهب إلى إخوتي في أمريكا.

– كيف حصل ذلك يا بنتي، صدام احتل الكويت وما دخلنا نحن؟!

– لقد تم طرد العديد من الفلسطينيين المقيمين في الكويت بشكل مباشر... مستخدمين ضدهم

حملة تطهير عرقي عنيفة ومنظمة، وذريعتهم في ذلك أن القيادة الفلسطينية قدمت المساعدات للعراق وساندته.

سكتت «هنية» عن الكلام، خاصة وان ابنتها الأخرى عاشت مع زوجها وأبنائها حياة كريمة في الرياض، لكن قانون منع الأجانب من التعلم في الأكاديميات السعودية، اضطر العائلة للهجرة إلى كندا طلبا للعلم، وبدأت تكوين حياتها من جديد في بقعة أخرى من هذا العالم.

قالت الأم وهي تتنهد:
- واحدة في كندا والأخرى في أمريكا مع أخويها. كيف سنلتقي ومتى؟

أنهى الأولاد تعليمهم في أمريكا، وحصلوا على الجنسية هناك، وفي إحدى الزيارات لوالدتهم في بيروت، قالت الأم: - أنتم تعرفون بأن والدكم، كان يزور جميع أهل بلدتنا المهجرين في لبنان، وهناك عائلات جديدة من بلدتنا رحلت من الكويت، وسكنت هنا في بيروت، وعليكم زيارتها والتعرف عليهم.

لكن الذي حصل هو أن الأولاد أثناء زيارتهم لهذه العائلات، تعرفوا على فتيات من دير الأسد وتزوجوا منهن، ورحلوا مع زوجاتهم إلى أمريكا طلبا للرحمة والاستقرار.

كان الغبار والدخان يملأ السماء في ساعات الغروب، وكانت «هنية» وحدها عندما دوى صوت القنابل التي سقطت بالقرب من سكناها. صرخت «هنية» من الفزع، ضاقت أنفاسها، فكت أزرار معطفها وخلعت المنديل عن رأسها وظلت تشعر بالاختناق وضيق الأنفاس ولم تجد من يسعفها؛ فالقصف الإسرائيلي الشديد في الحرب الأخيرة عام ٢٠٠٦، أصابها بنوبة قلبية حادة أودت بحياتها، فدفنها ابنها بهدوء تام تحت جنح الظلام، ولم يكن بجانبه أخ أو قريب، والهواجس تمزقه.

وزاد شعوره بمدى عجزه في مواجهة الويلات المحتملة والوقوع في أي مكروه على وجه العموم... ثم بكى بمرارة، عندما تذكر أن والده دفن في القاهرة وأمه في بيروت، ولا يعرف أين سيكون مصير باقي أفراد العائلة.

حين وصل نبأ وفاة «هنية» إلى أهلها في قرية «جديدة» وفي دير الأسد، تجمع الأهل في دير الأسد وأقاموا جنازة رمزية للأم الفلسطينية التي وُريت في ثرى بيروت.

فتاة مخيم «عين الحلوة» التي كانت تركض وراء الطائرات، تقطن اليوم في دير الأسد بعد أن تزوجت ابن عمها، ولديها خمسة أولاد واسم بكرها صالح على اسم والدها. أصبحت دير الأسد مزارا لإخوتها المقيمين في أمريكا وكندا وأوروبا.

في أحدى الجلسات العائلية، التقت ببنت عمها الأخرى التي كانت تركض وراء الطائرات هي أيضا في دير الأسد. وعلى حين غرة، مرّت طائرة حربية بصوت مدوي من فوقهما، فنظرتا إلى الأعلى وبدأتا الهتاف بصوت مسموع: « يا طيارة في السما، سلمي على. . . ».

وفجأة تنبهتا لبعضهما، وسألت بنت «عين الحلوة»:
– من علّمك هذا الهتاف؟
فقالت بنت دير الأسد:
– هذا هتافنا ونحن أطفال!
– وهذا هتافنا أيضا ونحن أطفال!

سمعت والدي يقول، أن حصة عمي صالح من الأرض الموروثة من جدي محفوظة لأبنائه، فسألته: لكن أولاده وبناته مشردون، فمن سيعتني بأرضهم؟

نظر إليّ والدي تلك النظرة القديمة، التي ما زلت أذكرها وأنا طفلة، وتدل على الأبوة المتسامحة، وقال:
– ومن قال أنهم سيبقون مشردين إلى الأبد؟! سيعودون ويفلحون الأرض، مثلنا جميعا. . .

تمنيت لو أنه ضمني إلى صدره وهو يقول هذه الكلمات، فقد كنت بحاجة إلى شحنة من التفاؤل الذي يمتلكه، بعد أن كنت قد فقدت الأمل من عودة أي لاجئ.

مخيم برج البراجنة، لبنان، ٢٠٠٩ (تصوير: مارسي نيومان-مركز بديل)

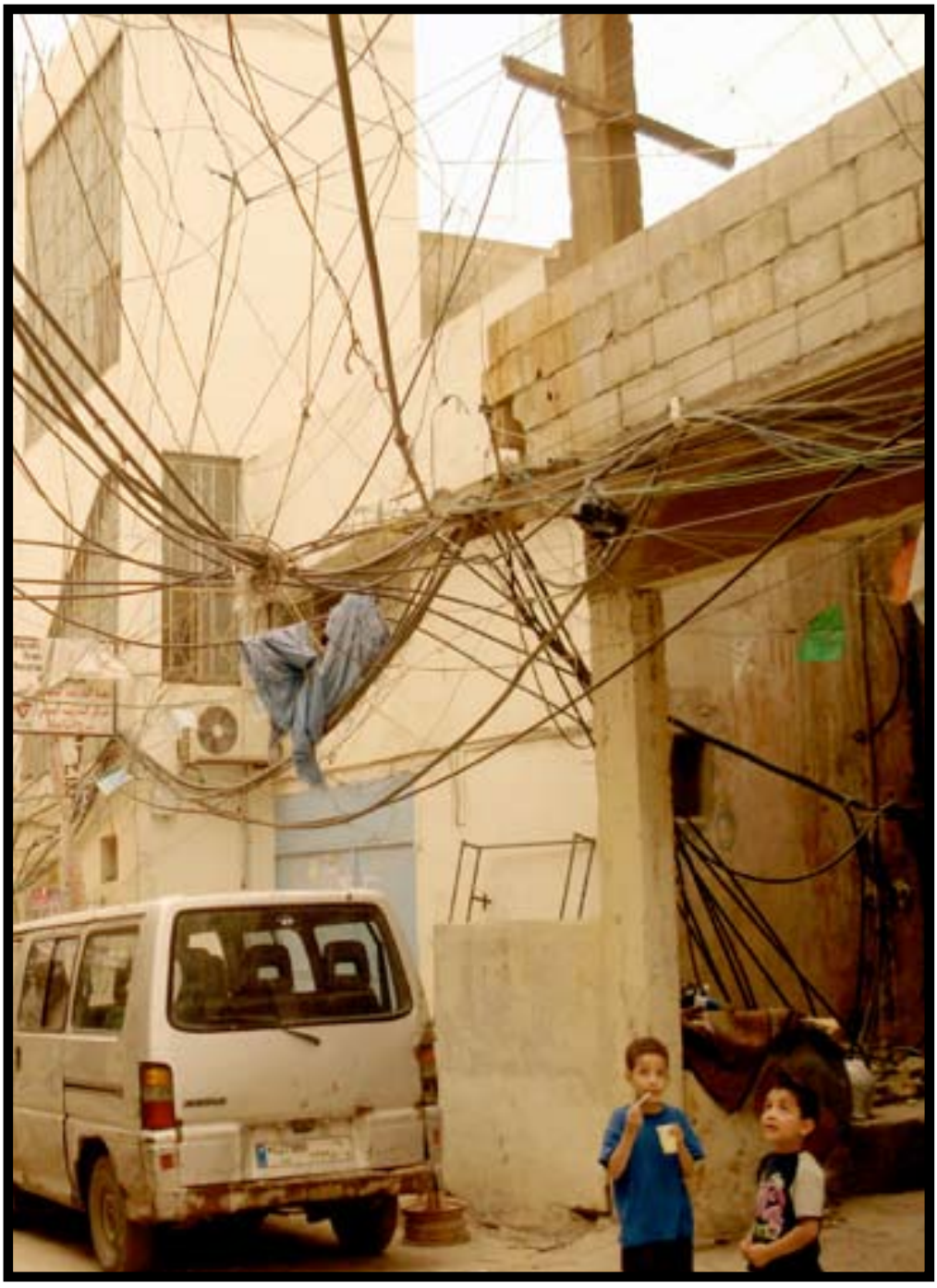

مصطفى*

بقلم: سامر منّاع**

يعيش المجتمع الفلسطيني في لبنان أوضاعا مأساوية في ظل الحرمان من الحقوق الإنسانية في الإقامة، والعمل، والضمان الاجتماعي، والتملّك، والحق في تحسين البنية التحتية والخدمات العامة، وتوفير مأوى سكني لائق.. الخ. كل ذلك يجري وسط تراجع ملحوظ لخدمات وكالة غوث وتشغيل اللاجئين التابعة للأمم المتحدة (الأونروا)، وخاصة في المخيمات التي يعيش فيها أكثر من نصف فلسطينيي لبنان (٢٠٢ ألف، الاونروا ٢٠٠٩).

اكبر هذه المخيمات، عين الحلوة، الذي يقع في مدينة صيدا (جنوب لبنان)، حيث يقطن فيه أكثر من ٦٥ ألفاً من اللاجئين (١/ ٣ سكان المخيمات في لبنان)، يعيشون في ظروف يلفها الفقر الشديد وارتفاع مستويات البطالة بسبب قيود القوانين اللبنانية المتعلقة بسوق العمل والتعليم والصحة وغياب الأمن والأمان. وبما أن ٣١ ٪ من اللاجئين الفلسطينيين في لبنان دون سن ١٦ عاماً، فإن هذه الفئة تعتبر الأكثر تأثراً بتلك الأوضاع الصعبة، وخاصة على الصعيد التربوي، حيث هناك العديد من المشاكل كاكتظاظ الصفوف ونظام الدفعتين والترفيع الآلي/ التلقائي الذي يعتبر من أهم أسباب ارتفاع نسب الرسوب والتسرب وعمالة الأطفال. وتدل المؤشرات على ارتفاع ملحوظ بعمل الأطفال في جمع الخردة وخاصة في مخيم عين الحلوة، وغير ذلك من الأعمال التي تعرضهم للخطر ومخالفة القانون بالسرقة أو تعاطي المخدرات، أو حتى اللجوء إلى بعض التنظيمات المتطرفة التي تستغل هؤلاء الأطفال في بعض الأعمال الخطرة والتي تؤدي بهم إلى السجن بتهم كثيرة وفي مقدمها الإرهاب.. الخ.

* احدى القصص الفائزة بجائزة تقديرية في مسابقة جائزة العودة للعام ٢٠١٠، حقل القصة الصحفية المكتوبة.

** سامر مناع: فلسطيني من مواليد لبنان، عمل في مجال التدريس في العديد من مدارس الاونروا، يعمل حالياً كمنسق مشاريع في مركز التنمية البشرية/ مخيمات اللاجئين الفلسطينيين في لبنان، ويكتب في الصحافة اللبنانية مثل جريدتي السفير واللواء.

تؤكد الإحصاءات (وزارة الداخلية اللبنانية)، أن نسبة الأحداث الفلسطينيين المخالفين للقانون اللبناني آخذة بالارتفاع من ٧,٢ ٪ في العام ٢٠٠٦ إلى ٨,٤ ٪ في العام ٢٠٠٧ و١٠,٢ ٪ في العام ٢٠٠٨. وتتركز هذه الظاهرة في جنوب لبنان، حيث ما نسبته ٥٠ ٪ من مجمل الأحداث الفلسطينيين المخالفين للقانون في الأعوام الثلاثة (٢٠٠٦، ٢٠٠٧، ٢٠٠٨). ومن الملفت أن هناك ارتفاعاً بتهمة الإرهاب لدى الأطفال، وخاصة بعد معركة نهر البارد في العام ٢٠٠٧ بين الجيش اللبناني وتنظيم «فتح الإسلام»، في تلك الفترة اعتقل العديد من الأطفال بظروف مأساوية ومنهم مصطفى عبد العزيز.

حصل الطفل الفلسطيني مصطفى عبد العزيز (١٦ عاماً) في بضعة أيام على خبرة رجال عدة في أشهر عدة، بعد أن قُبِضَ عليه بتهمة الانتماء إلى تنظيم إرهابي، ولا زال يقبع لغاية اليوم، بعد مرور ثلاث سنوات، في أَحد السجون اللبنانية من دون محاكمة. والجدير ذكره أن الطفل يعاني ضعفاً حاداً في النظر، وعاهة مستديمة في اليد اليمنى منذ أن كان عمره ٥ سنوات.

أكتب هذه القصة لأنني أعرف عن مصطفى أكثر مما يعرف جلاده وسجّانه. أكتب لأن مصطفى كأي طفل يعشق السكاكر ويكره رائحة السجائر. أكتب لأنه ينتمي إلى أزقة عين الحلوة الضيقة والوعرة؛ حيث تمتزج أحلام الأطفال ببراثن الفتنة بمختلف أنواعها، ومستقبل الشباب بشبح يحبط إراداتهم بخيارات محددة تبدأ بالهجرة وقد تنتهي عند الالتحاق بالجماعات المتطرفة المنتشرة بكثافة في أنحاء المخيم. أكتب لأنه يعشق الرسم، ويمقت أصوات طلقات «الكلاشينكوف»، ولأنه يحب «الرسوم المتحركة» وكرة القدم، ويهتم بقصص وأخبار جدته عن فلسطين أكثر من اهتمامه بمغامرات أمريكا وأسامة بن لادن.

ولد مصطفى لعائلة فقيرة ومحافظة تعيش في مخيم عين الحلوة الذي يبعد حوالي ١٠٠ كلم عن مخيم نهر البارد (شمال لبنان)؛ حيث يعيش جده لوالدته وأخواله. نشأ محباً للناس ومحبوباً منهم، كما تقول والدته. ويجمع أهالي الحي، أن الفتى ذو طبيعة هادئة تجذب إليه قلوب الناس من حوله، ونادراً ما يفوّت الصلوات في المسجد القريب من بيته وسط المخيم، كذلك كان يحرص على حضور حلقات التدريس الديني المنتشرة في المخيمات. قبيل اندلاع المعارك بين تنظيم «فتح الإسلام» المتطرف والجيش اللبناني في أيار ٢٠٠٧، حضر مصطفى إلى بيت خاله في مخيم نهر البارد

بهدف تدريسه بعد أن حصل على درجات متدنية في المدرسة. كانت وقتها مجموعات فتح الإسلام تتكدس يوماً بعد يوم في مخيم البارد بظروف غامضة خبرتها بنفسي في آخر زيارة لي إلى المخيم في نيسان ٢٠٠٧، حين قررت القيام بتحقيق صحفي متواضع عن الوضع الاجتماعي والصحي لأهالي المخيم، بعد أن قرأت خبراً عن ارتفاع ملحوظ بأعداد مرضى السرطان في المخيم. وقتها أوقفني حاجز للجيش اللبناني عند المدخل الجنوبي للمخيم، وقام بتفتيشي بشكل دقيق، انطلقت بعده بحماسة اقل وعزيمة أضعف. وكان مصطفى يتحضّر لامتحانات الشهادة الإعدادية عند خاله (أستاذ في مدرسة للأونروا)، وتدريجياً بدأ يتردد إلى مراكز «فتح الإسلام» لحضور حلقات التدريس الديني.

في ذلك اليوم، كنت أتجول في المخيم بحثاً عن ضحايا المرض الخبيث، وكان مصطفى يتابع دروسه الدينية في مكان آخر في المخيم نفسه! التقيت حينها بعدد كبير من المرضى معظمهم من الأطفال، وعند لقائي بإحدى الأمهات لسؤالها عن طفلها العليل، أنهت حديثها بجملة، أدركت معناها بعد عشر دقائق حين تبعني شابان وأخذا يرمقاني بنظرات غير بريئة، قالت المرأة: «احذر من الغرباء قرب الشاطئ»، وكانت تقصد أفراد تنظيم «فتح الإسلام» الذين كانوا يقطنون إحدى التجمعات قرب مدارس الأونروا عند الشاطئ. بعد أربعة أشهر تقريباً ألقى الجيش اللبناني القبض على مصطفى الذي كان يهرب من المخيم مع آخر مجموعة لتنظيم «فتح الإسلام»، بعد تدمير المخيم بشكل كامل ونزوح أكثر من ثلاثين ألف لاجئ، لا زالواً لغاية اليوم يسكنون في العراء، وطبعاً بعد سقوط المئات بين قتيل وجريح.

تعرض يومها الفتى لشتى أنواع التعذيب (وهذا أمر موّثق)،*** في انتهاك فاضح لحقوق الإنسان، واتفاقية حقوق الطفل، والدستور اللبناني، وقانون حماية الأحداث (القانون ٤٢٢)، وبعد ستة أشهر التقيت بالفتى لأول مرة في سجن رومية؛ حيث قال: «التحقت بحلقات الدروس الدينية التي كان يدعو إليها تنظيم فتح الإسلام بهدف جذب الفتيان والشباب، وتدريجياً أصبحت أقوم ببعض الأمور الإدارية اليومية»، وأضاف: «خلال المعارك كنت أساعد في تقديم الطعام والشراب إلى أولاد ونساء عناصر التنظيم ولم يكن لي خيار آخر!».

*** ملاحظة: كل المواضيع المتعلقة بالقصة موّثقة من خلال الفيديو (للتعذيب)، أو الأوراق الثبوتية/ الكتابية.

ومنذ ذلك اليوم، ارتبط اسمه بملف تنظيم «فتح الإسلام»، ولا زال لغاية اليوم حبيس سجن رومية في جبل لبنان. زرت مصطفى أكثر من مرة خلال عملي كناشط في مؤسسات حماية الأحداث وحقوق الإنسان، وخلال لقائي بالعاملات الاجتماعيات اللواتي يعملن في سجن رومية، كان دائماً حسن السلوك، و وكانت سيرة الصبي المعطرة بالخير محور حديثنا.

فلسطينية من حي الشيخ جراح تقف أمام منزلها الذي استولى عليه المستوطنون، القدس الشرقية، ٨ شباط ٢٠١٠
(المصدر : www . activestills . org)

الأرصفــة*

بقلم: خضر مناصرة**

يُقتلع الإنسان من أرضه، ويزج به في فضاء واسع، ويراد له أن يعيش غريباً عن بيته وعلى بعد أذرع من حديقته. خمسون مُشرداً، بينهم عشرون طفلاً، يرفضون قبل آبائهم اللجوء إلى الخيمة؛ لأنهم يعتبرونها قصة لاجئ خاسر. من بين هؤلاء، عائلات "الكرد" و"الغاوي" و"حتّون" التي تفترش الأرض في حي الشيخ جراح في القدس الحزينة، تحت شجرة كبيرة كثيفة، يُلف ساقها بشادر ليشكل مسكناً مؤقتاً "خربوش". يجتمعون ليؤلفوا سيمفونيةً ولحناً يُنشد في أرجاء المدينة المباركة.

الأجواء ملبدة بغيوم الاحتلال، يأتي شرطي إسرائيلي مخاطباً المواطن "ماهر حنون":

- يجب أن تغادر، احمل أثاثك وارحل...

و"حنون" معتاد على مثل هذه الحوارات، ولديه قناعات بحجم ما يمثلهُ هذا العسكري من تنفيذ للأوامر فقط؛ فيصرخ في وجهه قائلاً:

- ولكن إلى أين؟ قل لمن أمرك أن يرجع من حيث أتى، الى روسيا الى إثيوبيا أو... أما أنا، فهنا ولدت، وأقدام أجدادي مغروسة في طينة زهرة المدائن، وتنساب جذورهم بين مصاطب الأقصى وحارات القدس العتيقة.

يُطير الشرطي الهواء متأففاً!

- لا تكثر الكلام، هيا أسرع! فليس عندي وقت...

---

* إحدى القصص الفائزة بجائزة تقديرية في مسابقة جائزة العودة للعام ٢٠١٠، حقل القصة الصحفية المكتوبة.

** خضر مناصرة: يعمل مدرساً في مدرسة بني نعيم/ الخليل. له العديد من الخواطر والقصص القصيرة، صدر له كتاب عام ٢٠٠١ بعنوان: انتفاضة قلم.

يقاطعه "حنون":

- ولم العجلة؟ أنا ألحظ نسيم الصيف الهادئ يداعب شجيرات حديقتي عصراً بعد... زمني بعيد يمتد من كنعان إلى الآن، ومساحتي من شرم الشيخ إلى سعسع... أما القدس فهي مهدٌ للهمّ الفلسطيني ولأمثالي، لمن يحملها أحجاراً مرصوصة على رصيف الوطن...

يجلس "ناصر الغاوي" في شبه خيمة مجاورة، يحتسي الشاي المقدسي المعطر بالنعناع الحوساني، وابنه الصغير يمارس لعبته المفضلة (القط والفأر). يمحو رسومات النجمة السداسية وشعار دولة الاحتلال من على الجدران، يطرده المستوطنون، ثم يعود... ثم... ويستمر التحدي. يفتش الصغير عن إجابات ضائعة بين معاجم الكلام:

- هل كلمة مخيم يا أبي تعني فلسطيني؟

يضحك الأب ضحكة منكسرة، ويجيب:

- كلا، فالحكاية تبدأ حين نصب الاسكندر الأكبر خياماً لجنده المنتصرين، وتبدو في زمن من الخسة العربية الجاهلية التي مارسها "جساس بن مرة" في بيوت الشعر البدوية ضد النساء التغلبيات، إلى أن تنتهي بالخيمة التي ينصبها المستوطنون احتفاء بالاستيلاء على بيوتنا، وبعدها بخيام المشردين وتخييم المضطهدين، ومخيمات اللجوء.

يتدخل الطفل:

- وهذا معناه عسكر وظلم واستيطان...

ولكن خبير الخيام الدولي يسعفه قائلاً:

- في الوطن العربي الواسع، تنصب خيمة لمن يترشح في الانتخابات، وفي زمن الردة العربية الحديثة يُنْشأ مخيم السلّوم على الحدود المصرية الليبية، وفي مشعر "منى" خيام للحجاج لرجم ذكرى إبليس اللعين، وخيمة تضامنية مع الأسرى والمعلمين والمظلومين. ولا ننسى أعواداً بالية يثبتها المزارع في حقله لطرد الطير الغريب...

يتنهد ناصر:

- "آه..."

ويكمل الأب:
– الفزّاعات كان ينصبها أبي في بيّارتنا في صرفند الخراب، وبعد عام النكبة تأرجحت عائلتنا بين القدس و أريحا، ثم ثبت والدي ليعمل مزارعاً عند عائلة الحسيني، لأنه يحب الأرض.

تتداخل الصور وتتنوع المشاهد، تجلس عائلة "الكرد" في خيمة مساحتها من طرف الشارع إلى جدار بيت أم كامل التي طردت منه بعد تكبيلها ورميها مع زوجها المقعد إلى الخارج. يتسلل ضوء خافت عبر جدار الخيمة، تحرك أم نبيل المصابة بثمانين خريفاً، نظارتها إلى أعلى أرنبة أنفها:
– أشعر يا أبنائي بدنو أجلي واقتراب نهايتي، ولكن كيف وأين تكون جنازتي؟ من يشارك ومن يُمنع؟ أين سيكون بيت العزاء؟ إن كنت في الدنيا أنام على الرصيف والشارع المعبد "بالزفت" العربي، يا لهفي على نفسي! يا ويلتاه على حالي! يا إلهي! فموتي على الإسفلت ليس ترفاً، كيف وأنا أدس في التراب خارج الجدار العنصري.

تقطع أم السعيد (زوجة نبيل الكرد) حالة الكوميديا السوداء التي تراءت لأم نبيل:
– تفرج – إن شاء الله – يا حاجة.

يضحك أبو السعيد ضحكاً مراً، ويستل قهره خنجراً يطعن به الراقصين على الجراح:
– نحن نسحق، نكاد نتلاشى عن الخريطة، وما زالت أصداء تلك الجملة التوراتية تصعقني حين نهرني جندي هذا الصباح قائلا: "هل تعلم أن الفلسطيني الجيد فقط هو الفلسطيني الميت!"، فإلى متى الصمت المخزي لأخوة الدين والعروبة؟

تستوقفه نبيلة (شقيقته):
– العرب والمسلمون واليهود، يحتفلون بالفرحة والأعياد، أما نحن فقد زارنا رمضان ومر بجانبنا عيد الفطر السعيد، وداهمنا عيد الأضحى المبارك، ونحن بلا بيت وبلا وطن وبلا كرامة، ويعتصرنا الألم والخجل عند قضاء الحاجة صباحاً في بيوت الجيران، ساعتئذٍ نصطف ونسير كخيط من النمل وان – لا سمح الله – تدحرج إطار مثقوب من مركبةٍ مسرعةٍ فقد يشاركنا "غرف نومنا"، وأثاثنا ملقى على زوايا الطرقات، ويدور الحديث عن دولة وعاصمة!

تمضي الأيام، وتروح الأشهر، وتختلف الفصول، من آب اللهاب إلى تشرين الحزين، لعام تسع

وألفين للميلاد. يسافر ناصر الغاوي وشريهان حنون إلى أمريكا لنقل معاناة المقدسيّين للعالم. تبتعد الطائرة وذاكرة ناصر إلى الوراء، تاركة ورائها مآسٍ مريعة حزينة، فما زالت الأمهات المشردات يذرفن دموع الدم والصبر. ينظر ناصر من نافذة الطائرة ليرى مدناً ذات بنايات عالية لا يسكنها أحد؛ ففي مدينة دبي برج العرب، وفي فلسطين لا مأوى، وفي قدس الأقداس قهر العرب! وكثيرون هم من يشاركون الأموات قبورهم في ارض الكنانة. . . ثم يلتفت لشريهان:

- ترى يا ابنتي، كم عدد المملكات والجمهوريات والسلطنات التي تجمعها لغة الضاد؟
- ما هذا السؤال البديهي يا عم ناصر؟
- لو تبنت كل دولة أسرة "جرّاحيّة" (من الشيخ جراح) لحسم الأمر! اكثر من عشرين قبيلة في جامعة القبائل العربية، وسيضاف إليها جنوب السودان وهو يسعى للتفلت من عهود الوحدة، والصحراء الغربية تنازع المغرب سلطته، وأكراد العراق يرفعون علماً خاصاً بهم، والحِراك في اليمن يحنّ إلى ماضيه، وجزر طنب وأبو موسى تحلحل أغلالها، ومدينتي مليلة وسبتة تتململان لنفض غبار الجلاد الأسباني، وفلسطين تنشد الشعوب دولةً، وهناك مشاريع مستقبلية. . .

تهبط الطائرة ويترجل الفارسان، المهمة ليست سهلة، يعرضان قضية الشيخ جرّاح الكليم على مجلس الكونغرس، يستمع الأخير لروايتهما ثم يناقش الأمر مع بعض أعضائه ومنهم اليهود! ويكون الحل إما إعادة توطين أو تحسين مستوى المعيشة! " أما التوطين فنقبل به مؤقتا في مدينة القدس؛ لأنها قد تعادل الرملة وصرفند الكبرى، وأما مقايضة الوطن بالخبز فقد رفضها آباؤنا يوم أن تنازلوا عن معونة وكالة الغوث مقابل المسكن، ونحن نجدد السير على خطاهم". يعود الاثنان بخفيّ حنين (تيتي تيتي، زي ما رحتِ زي ما جيتِ).

يموت الخريف ويزحف الشتاء عبر صفيح من التنك مملوءٍ بالحطب، ولهيبٍ مشتعلٍ على الرصيف. تزحف أم رامي حنون إلى الموقد وأطفالُها يلتصقون بها خوفاً من المغتصبين وصراخهم وأسلحتهم ويرتجفون برداً، قبل أن تُسلم جسدها للنوم. يحملق الصغير في وجهها وتعرف سره وإصراره، لتصله إجابة وافية:

- البقاء في القدس يا ولدي أمر غير خاضع للنقاش. . .

تنهمر أسئلة الصغار وهم يقتربون من النار، يسألون في كل الاتجاهات، عن النكبة والنكسة وفلسطين

والعودة . . . ويسألون عن كل الأماكن، فيبادر أحدهما مستفسراً:

- ماذا تعني لنا هذه المدن، بيروت وبغداد والقدس؟

تجيبه الأم:

- من بيروت أبحرت سفننا إلى صنعاء وتونس و الجزائر وحط الركب في الضفة وغزة؛ حيث الحصار يخنق الشيخ والطفل حتى الجنين. وبغداد فيها شلال دم وبزّات "مارينز" وذكرى زعيم، كان أباً حانيا فصرنا بعده أيتاما على موائد اللئام. والقدس مدينة الأنفاق والأسوار والخيام عليها سلام، تركها الصديق والقريب تقاوم وحدها، سلاحها إرادة ساكنيها، فعليهم سلام. . . في القدس رصيف ما عاد يوضع على طرفيه سلة مملوءة برزم "البقدونس" و"المريمية التلحميّة" في باب العمود، ولا يسير عليها المشاة، وما عادت أكياس العطارة تصطف تحت الشوارع المسقوفة!! في القدس حافة الشوارع مسكن وموطن للمقدسي الجّراحي. . .

بعد ذلك تتيقن أم رامي أن مثل هذه الليلة، هي تاريخ جيل الغد ووصية الجد وعنوان الابن والحفيد، فما دام فينا وليد وشيخ وشهيد وعزم على التجذر في الشيخ جراح وعين كارم ولفتا وسلوان والقسطل والحرم الشريف. . . لم ولن يخطر ببال رجال الغد أن يستبدلوها بكلمات غريبة مثل الحوض المقدس والحدائق التوراتية وجبل الهيكل ورحافيا والصدّيق شمعون و. . . الخ.

وقبل أن ينبلج فجر القدس، كان القرار. اجتمع كل المشردين والمطرودين والمهددين بالإخلاء في حي الشيخ جرّاح، وصاغوا بياناً ختامياً جماعياً تتلوه "رفقة الكرد" من على الرصيف الحجري الساكن، هذا نصه: "المشوار طويل فمن له ماضٍ، له وطن ومن له بيت، لن يضيع كما قالت الحكمة الكنعانية (ما بتروح دينه وراها مطالب)".

يا أهل فلسطين، يا أصحاب الحق، تعالوا معاً نتصفح وجه قمر القدس الوردي الصامد، وفيه سطور تضيء دروبنا، حال لسانها يؤكد أن هناك أحياءٌ تفترس الحياة وأخرى تبحث عن البقاء، فقضية العيش شهوراً، ابناً للشارع "كلاجئ أرصفة" تتحدث عنه كل الدنيا للمرة الأولى، تختلف كليا عَن "اللاجئ المعتّق" الذي قصّ تاريخ تشرده لأحفاده ألف ألف مره! وهي ليست مسألة زمن بعينه، ولكنها الفارق الحقيقي بين فلسطيني ينتمي فطرياً إلى أصله وترابه، ويتلو القدس آيةً خالدةً في صلواته، وبين مغتصب يعّلق نفسه بجدلية وجوده في مكان غريب عن مولده ونشأته وتاريخه.

ضمن نشاط إحياء ذكرى النكبة . مخيم الدهيشة ، بيت لحم ، ٢٣ أيار ٢٠٠٣ . (تصوير : مركز بديل)

الطّاحـونــة*

بقلم: باهي الخطيب**

لم يسلم شاهر من التأنيب، ولم تسعفه كل المبررات، عندما اخبر والدته بأنه نسي إدخال كيس القمح إلى الجرن، وما عرضه لـ"شلع" الأذن، هو الخبر الآخر الذي نبس به "ونسيت الطاحونة كمان!"...

وما هي إلا لحظات، حتى أقحم الزوج، والذي كان غارقاً في التفكير في المعادلة وتحول المسير إلى محكمة جوالة:

- عاجبك ابنك شو عمل؟! هي نسي يدخل الشوالات والطاحونة عالجرن، وهاذ اللي عاملينه ذراعنا اليمين في الدار! هسا ما رح يظل منهم ولا حبة، ولما نرجع عالدار رح نلاقي ارظية الحوش ما فيهاش غير عرق الدالية اللي زرعناها، إذا ربك سلمها وما فاتو البهايم قرطوها.

وشرعت في التفكير بصوت عالٍ؛ ممطرةً زوجها بكم من الأسئلة، عن بيتهم الذي شيّده حديثاً؛ حيث كانت تردد باستمرار: "ما حكل غير تنصل"؛ وماذا سيحدث له إن دخله غريب ما وعاث فيه خراباً، بخاصة وأن ساحته مكشوفة وبوابته لم تكن محكمة الإغلاق. فكرت في كيس القمح الذي جزمت بزواله فور خروجهم من البيت، ومن أين ستأتي بشيء من الحنطة لتشبع أفواه خمسة صغار كالعصافير؟

---

* إحدى القصص الفائزة بجائزة تقديرية في مسابقة جائزة العودة للعام ٢٠١٠، حقل القصة الصحفية المكتوبة.

** باهي الخطيب: من مواليد مخيم قلنديا/ رام الله، حاصل على دبلوم صحافة وإعلام من كلية المجتمع العصرية، ويعمل كمراسل صحفي لعدة مراكز فلسطينية.

وفجأة استكانت أم شاهر للهواجس التي راودتها من كل حدب وصوب، فأجهشت بالبكاء، ولم تفق إلا على صوت زوجها وهو يطمئنها:

- متخافيش يا وليّة، كلها يومين ثلاث، وان كثرت أسبوع، وبنرجع وبنلاقي كل شي زي ما هو؛ القمحات والطاحونة والدار وخم الجاجات، كل شي رح تلاقي زي ما هو، بس صبرك اكمن يوم لحد ما العرب تدخل بجيشها، والله ما تلاقي ولا مخلوق من هللي خايفين منهم، وغير "الكبنيات" اللي شايفيتها تتهدم عفوق روسهم هالملاعين. واذا مفكرة انه العرب رح ينبسطو لما يجو ويشوفونا منعوفين هان وهان، ومش حاملين غير الاواعي اللي علينا، بتكوني غشيمة ومش عارفة اشي في الدنيا، المهم هسا خلينا نلاقيلنا محل نقعد في ونريّح هالصغار.

لكن حلم الزوج لم يتحقق، والجيوش التي راهن عليها بقيت تشحذ سيوفها إلا أن ضمرت، ولم يبق منها سوى المقباض.

وما هي إلا أيام حتى وجد شاهر نفسه ومن معه في بقعة جغرافية غريبة عليهم، فيها أشخاص يألف وجوههم وآخرون لم يرهم قط. كان ذلك في يوم تموزي من العام ١٩٤٨، وكان شاهر يبلغ من العمر عشر سنوات، عندما بدأت الأخبار تنهال علىً أهاليً قرية البرج الواقعة إلى الشرق من مدينة الرملة، عما يجري على حدود القرية من ناحية «الأرض المشاع» من تحركات غريبة واستعدادات لدخول القرية.

وكان أهل القرية قد سمعوا بما جرى في القرى المجاورة لهم، من قتل وسلب ونهب واغتصاب، وكانت القرى التي لم يصلها شيء بعد، أشبه بقنبلة موقوتة في انتظار ساعة الصفر. وما هي إلا لحظات حتى بدأت الأصوات تدوي هنا وهناك، وبدأ أهالي القرية يتناقلون الأخبار فيما بينهم كالنار في الهشيم، عن قتل «ابو فلان»، واغتصاب «ام علان»، و«الكيزان» الذي سقط في حوش أحد البيوت، ما أدى إلى مقتل أولاده دون استثناء. وما إن انتشرت هذه الأخبار في القرية حتى بات أهلها كالفراش المبثوث، يتراكضون يمنة ويسرة، ويمشون حيث لا وجهة لهم. وحال شاهر وأهله لم يكن اقل سوءاً عن سواهم، فكانت وجهتهم إلى قرية عين عريك.

في الطريق من البرج إلى عين عريك مسافة لا تنتهي وشمس تأبى الأفول؛ كما أنها لا تخلو من تأنيب

الضمير، لذنب صغير اقترفه طفل دون قصد، وجلد الذات مرات ومرات بسوط عبرات الأم، لطفل كان ضحية مؤامرة وتواطؤ شبه أممي.

وسار شاهر ممسكاً بطرف ثوب أمه، والحبل الذي رُبط في ساق «المعزة»، سار طويلاً دون الوصول. وعنوةً، وخارج نطاق سيطرة ذهن الصغير، غاص في غمار الأحداث التي انهارت في ذهنه دفعة واحدة؛ تذكر تلك الأصوات الغريبة في القرية، والأخبار التي تناقلها أهلها، والتي لم يقرأ فيها سوى رؤياه لنظرات غريبة في عيون الكبار، لم يجد تحليلاً لها.

وما هي إلا دقائق معدودة حتى ارتطم بخوف طفولي أشبه بكابوس يفوق في رعبه وقع «الرحيل من البلاد»... تذكر أنه لم يحفظ سورة «الفلق»، التي كان قد طلبها منهم شيخ الكتّاب، ما جعل عينيه تفيضان بالدموع. ولم يفق شاهر من تفكيره إلا على صوت أمه مؤنباً إياه لإفلاته طرف ثوبها، فعاد الكرّة ممسكاً، ولكن أشد مما قبل، بثوبها وبحبل «المعزة»، كي لا يكرر خطأ اقترفه قبل سويعات.

وبين التهجير والنضال في سبيل الرجوع، ستة عقود كانت من استحقاقات فرضها الواقع على من عايشوه، ترنح فيها شعب بأكمله مذبوحاً على أبجديات الوطن والعودة. أُسر من أُسر، وشرِّدَ من شرِّد، ومات من أجلها من استطاع إليها سبيلا، فكان الانتظار، وكان المخيم...

وها هو ذا يسكن شاهر اليوم في أحد مخيمات اللجوء قضاء رام الله، ويكنى بـ«أبو إسماعيل». لقد أصبح شيخاً كبيراً تجاوز السبعين من عمره، وقد اعتاد أن يجلس إلى جانب «أم إسماعيل» كلما شرعت بـ«العزف» على الطاحونة كما يسميها.

هو يعمل كمدرّس متقاعد لأحفاده، يعلمهم التاريخ والجغرافيا؛ جغرافيا البرج و«بيراماعين» و«برفيليا» و«ساريس»، يعلمهم الفن والأغاني، وأصول «السحجة»، و«الميجانا»، و«العتابا»، يعلمهم قواعد الرياضيات، وكيف أن المساحة الفعلية للأرض لا تقبل القسمة على اثنين- شعبين، كما انه بارعٌ في الفلسفة، حيث يردد دائماً، بأن البنّي إن لم يمزج بالأحمر؛ فلن يزهر أبداً.

وما أن تبدأ زوجته بـ «الجَرْشِ على الطاحونة»، حتى تلقي ستين حولاً ونيّف بأثقالها على صدره.

يصمت، ينصت إلى نشيج الروح والذكريات، يحس بألم «الشلعة»، يتحسس أذنه، ويقرأ الفاتحة على أم شاهر وأبو شاهر، الذين دفنوا في مقبرة المخيم، وتشجيه أم إسماعيل بـ «ترويدتها» التي يحب:

عالروزانا عالروزانا شو اشتقنا للبلاد
هي يابو خيمة زرقا يا راحم في العباد
حفنة من تراب الوطن تشفي من الروح جروح
ما النا غير العزم، يجيب الأرض والروح
طول وما فينا نَفَس، معناتو فينا حيل
لا تزعل يابو العيلة، اضحك يابو إسماعيل

ويضحك «أبو إسماعيل»، وتضحك «أم إسماعيل»؛ يضحكان بحرقة، وبعيون غارت في تضاريس الوجوه.

صبّار قرية بيت جبرين المهجرة عام ١٩٤٨، صورة للطفل مراس العزة، ١٦ عام، شاركت في حقل الصورة الفوتوغرافية، جائزة العودة ٢٠١٠.

حفنة تراب وغصن جمّيز*

بقلم: جمعة أبو الحاج**

كان صوت أمي (جدتكم) وهي تحكي لي حكايات القرية الجميلة مختلطاً بصوت الطاحونة. . . كان من أحلى الأصوات التي تسمعها أذناي وهي تحكي لي عن سنوات العز في القرية.

كان صوت الطاحونة التي هاجرت معنا يتغير مع تغير الحكاية. كنت أُحس في صوت الطاحونة لحظات سعادة حين أسمع صوتها وكأنه يقول لي: أن الأيام الباقية على العودة إلي أرض الوطن قليلة فأعيش مع الأمل الكبير. وكنت أسمع صوتها أحيانا كأنه صوت أنين يقول لي: إن سنوات التهجير والبعد عن الوطن مازالت طويلة فأشعر بالألم. . . كنت أُسميها طاحونة الأمل والألم.

كانت تروي أمي لي حكاياتها في أوائل الستينيات في مخيم خان يونس تحت سقف الكرميد. ويتابع أبو عائد: "لقد رضعت أحداث التهجير المؤلمة وأنا في (المظفر) مهاجراً فوق ظهر أمي. . . تماما كما رضعت حليبها".

بهذه الكلمات كان يتعمد أبو عائد أن يبدأ حكايته مع أولاده في كل مرة وهو يحدثهم عن ذكريات القرية التي ينقلها لهم مما كان لاصقا في ذاكرته؛ مما كان يرويه إليه والده أو أمه أو أخته الكبيرة (أم عادل). كان حديث أبي عائد لأولاده في أواسط الثمانينيات في مخيم خان يونس تحت سقف (الاسبست)؛ حيث كانت تتراوح أعمارهم ما بين الخامسة والثالثة عشر من العمر.

---

* إحدى القصص الفائزة بجائزة تقديرية في مسابقة جائزة العودة للعام ٢٠١٠، حقل القصة الصحفية المكتوبة.

** جمعة أبو الحاج: سكان قطاع غزة، مدرس متقاعد، يكتب القصة القصيرة منذ عام ١٩٧٥.

كانت جلسات دافئة يحكي فيها أبو عائد عن الأيام الحلوة في القرية. يُخرج لهم من المخزون في ذاكرته من حكايا أمه. يقول أبو عائد:

كانت أمي تقول لي ولأخوتي ونحن نلتف حولها: "يا من دَرَى يمّه نعود لبلادنا... نعود لفرن الطابون إللي كان وَرَى الدار جمب الجميزة... ولبرج الحمام... يا من دَرَى يمّه نعود لِهديك الأيام الحلوة... ".

ويسترسل الأب قائلاً لأولاده:

كانت تأتي لزيارتنا عمتكم الكبيرة (أم عادل)؛ كنا نفرح كثيرا. تحكي لنا وخاصة في الليل عن الشاطر حسن وحكاياته مع الغولة، وحكاية (جبينة) والرغيف والرغيفين والدعبوبة وين... وأثناء حكاياتها كانت تمثل لنا بعيونها وفمها ويديها؛ حيث نخاف كثيرا وكأن أبطال الرواية حولنا في تلك اللحظات المختلطة بصوت المطر على السقف الكرميدي.

كانت تردد بعض الأغاني ونحن نسمع لها بكل جوارحنا؛ فتقول: في عرس أخيكم الكبير أحمد كان الرجال يقولون في زفته (وهي تصفق بيديها):

"اربط عندك باب الشارع... يا طولك يا غصن فارع
اربط عندك باب الوادي... يا عطرك يا عطر بلادي
يا خده يا خوخة حمرة... يا حبو في قليبي جمره... ".

ويكمل أبو عائد راويا لأبنائه:

لقد عايشت التهجير منذ البداية؛ أذكر يوما ذهبت إلي المدرسة، وفي الطريق تذكرت أني حافي القدمين لأنني متعود علي ذلك؛ فعدت إلي المنزل...

كانت جدتكم توقظنا مع الفجر للذهاب إلي (الطعمة)- مركز توزيع الحليب- لنأخذ حصتنا، وفي أغلب الأحيان، رغم فقرنا، لم نكن نحب شربه؛ بل كانت أمي تعجن فيه الرَدّة طعاماً للبط والدجاج.

ويستطرد أبو عائد:

لقد افترشنا والله التراب في خيمة كبيرة كان جدكم قد بناها لنا على أرض سوافي غزة بالقرب من البحر. وكان ذلك في أوائل الخمسينيات قبل أن نأتي هنا إلي خان يونس في سنة ١٩٥٤.

وفي إحدى الجلسات الدافئة يُحدث أبو عائد أولاده عن رحلته في العمل في الأرض المحتلة فيقول:

لقد أراد الله لي أن أُنهي تعليمي المتوسط بعد الثانوية العامة في دار المعلمين بغزة، ولم يحالفني الحظ في الوظيفة كمدرس، فاتجهت إلى العمل في الأرض المحتلة في سنه١٩٧٠ في مهنة البناء. ومرت الأيام والشهور والسنون، وانخرطت في العمل وأتقنته، وكنت أكسب مبلغاً محترماً جعلني بصراحة أصرف نظر عن البحث عن وظيفة مدرس؛ لأن ما كنت أكسبه في الشهر أضعاف ما كان يأخذه المعلم... كان هذا في فترة السبعينات كلها. ولكنني أريد أن أقول لكم، أنه رغم زحمة العمل كنا نخرج في رحلات عائلية مع الحارة إلى داخل الأرض المحتلة وخاصة للصلاة في المسجد الأقصى.

وفي نهاية إحدى سهرات أبي عائد مع أولاده وعدهم أن يحدثهم في السهرة القادمة عن رحلته العائلية مع عمهم الضيف من المغرب إلى أجمل الأماكن على الأرض كلها؛ قريتهم: (يبنا).

وجاء الميعاد.. وجاءت السهرة.. وقبل أن يبدأ أبو عائد حكايته مع أولاده قال لهم:

سأحكي لكم عن زيارتي لقريتنا يبنا حتى ولو للفجر؛ استمعوا إليَّ جيدا. في سنة ١٩٧٥ جاء عمكم من المغرب لأول مرة منذ غادر فلسطين سنة ١٩٦٤. وفي يوم قررنا أن نذهب لزيارة الأرض المحتلة من قبل الصهاينة، والتي منها بلدنا: (يبنا).

أول ما رأيناه عندما دخلنا القرية ذلك الباب العتيق الصدئ. عندما رآه أخي الأكبر قال: «هذا بيت الشيخ عبد الكريم... أستاذي».

عندما نظرت إلى الباب العتيق أحسست بقلبي وكأنه يقول لنا: لقد طال غيابكم عني! ألا تَروْن كيف أصبح حالي؟! ولكنني رغم الغياب فأنا في انتظاركم. ثم رأينا علي عجل تلك المئذنة القديمة، وخزان المياه؛ ثم تفرقنا هنا وهناك بين أطلال ما كان (ولا يزال في قلوبنا) يُسمى قرية (يبنا).

كانت هناك تلة تبدو من شكل أرضها أنها كانت مسطح بيوت لم يبق منها إلا أساساتها. تخيلت وأنا أجلس على حجر قديم من بقايا أحد بيوت القرية وكأن بيتا قد ارتفع على جانبي وان هاتفاً من السماء يقول: «هذا بيت لعائلة الرنتيسي»؛ ثم يختفي الصوت والبيت، فما يلبث ان يختفي حتى إذا ببيت آخر يرتفع ونفس الصوت يقول: «هذا لعائلة الهمص»؛ وهكذا يتكرر المشهد في اتجاهات مختلفة... وأسمع أسماء عائلات كلها من قرية يبنا.

يأتيني أخي الأكبر ويقول لي: محمد، أُنظر: هناك كانت دار السيلاوي... وهناك دار أبو البيض... وهناك دار المختار عوض الله أحمد عوض الله... ثم يصمت فجأة، وعندما نظرت إليه فإذا بالدموع تطفح من عينيه.

وبعد أن سكتت الأصوات فتحت حقيبتي الصغيرة وأخرجت منها كيسا من البلاستيك وضعت فيه بكل حنان حفنة من تراب قريتي، حفنة تراب غالية جداً... وضعتها في الحقيبة وهي في الحقيقة متربعة في قلبي.

ثم حانت مني التفاتة إلى المئذنة القديمة وخيِّل إليَّ أنها تقول لي: أما آن للآذان أن يُرفع مني ليسمعه أهل القرية ويأتوا للصلاة؟ وتستطرد قائلة: منذ أن هُجرتم عني وتركتموني وحيدة؛ لم يُرفع الآذان مني أبدا. ولكن لابد أن تعودوا إليَّ.

قاربت قصة ذكريات القرية علي الانتهاء، ولكن أبا عائد كما وعد أبناءه لابد أن يحكي لهم كل الذكريات فيتابع:

كان آخر ما ودعته في القرية شجرة الجميز؛ تلك الشجرة الكبيرة التي كانت على

جانب الطريق . . . عندما كانت السيارة مستعدة للتحرك بنا لمغادرة القرية، ذهبت إلي الشجرة مسرعا لأقطع منها غصناً آخذه معي إلى بيتي في مخيم خان يونس .

رآني أخي الأكبر مني وقال لي : "يا محمد لا تقطع من الجميزة لكي لا يراك الشرطي اليهودي" . فرددت عليه بسرعة وأنا غضبان : "والله لو أُقتل الآن ما أترك الغصن . . . هذه بلدي . . ." . غادرت القرية وأنا أنظر إليها من نافذة السيارة مودعاً؛ وكأنني أسمعها تقول لي : "متي ستعودون إليَّ . . . لا تجعلوني أنتظر طويلاً" . . .

اغرورقت عيناي بالدموع . في تلك اللحظة وأنا أروي هذا المشهد، نظرت إلى أولادي فإذا كلهم قد اغرورقت عيونهم بالدموع مثلي وخاصة ابنتي الكبرى . ويستمر أبو عائد في حكايته مع الحياة . .

وتمر السنوات، ويكبر الأولاد وتكبر البنات؛ الحمد لله، البنات تزوجن وأسعدهن الله، والأولاد أكملوا المرحلة الجامعية وتزوجوا وأسعدهم الله . كنا نعيش في بيت واحد، الى أن جاء قدر الله يوم السابع والعشرون من شهر ديسمبر سنة ٢٠٠٨؛ يوم الحرب البربرية (بل أكثر) على غزة .

قضينا حوالي عشرة أيام ونحن صامدون في بيتنا حتى أتى يوم السادس من يناير سنة ٢٠٠٩ موعدنا مع القدر والحمد لله علي هذا الموعد . كانت ليلة السادس من يناير سنة ٢٠٠٩ ليلة ليلاء . اشتد القصف المدفعي والطائرات الزنانة و(إف __ ١٦) اشتد من حولنا من جميع الجهات؛ حيث نزل جميع الأبناء وزوجاتهم إلي الطابق السفلي عندنا .

ومع قرب الفجر كانت اللحظات الحاسمة؛ حيث سمعنا دوي انفجار هائل . نظرت من النافذة فإذا هو بيت صديق العمر أبي أحمد . أسرعت دون وعي إلى بيت صديقي الحبيب، فلم أجد إلاّ الركام والدخان والدم والجثث فعرفت أن صديقي الحبيب أبو أحمد قد ذهب من الدنيا هو وجميع عائلته . فعدت مسرعا إلى بيتنا مذهولاً أُنادي بكل ما أُوتيت من قوة صوت على أهل بيتي أن اخرجوا بسرعة . . .

خرجنا بمنتهى السرعة، كنت أحمل لحظتها أصغر أحفادي. ابتعدنا مسافة حوالي مائة متر، وإذا بالقذائف تتوالى علي منزلنا. لم أرَ بعد ذلك إلا الدخان والنيران المشتعلة والحجارة تتطاير في كل اتجاه. أحسست كأن قلبي يطير هو الآخر معها، علمت لحظتها أن المنزل هُدم بالكامل. كان يحيط بي في تلك اللحظة صُراخ النساء وبكاء الأطفال. . . لحظات يعجز القلم عن التعبير عنها. . والحمد لله لقد إنتهي بيتنا تماماً.

ويُكمل أبو عائد قصة المأساة:

كنا نذهب إلي بيتنا من وقت لآخر ونجلس بالقرب منه في خيمة. وفي يوم كنا جميعاً في الخيمة بالقرب من أنقاض بيتنا الحبيب وفجأة يقوم أحد أحفادي وبيده علم فلسطين ويجري به مسرعاً ويرتقي الأنقاض ثم ينادي عليَّ بأعلى صوته:
ـــ "سيدو. . سيدو. . شوف".

ويضع العلم ويربطه في أحد القضبان الحديدية ويقف بجانب العلم وقفة فيها عِزة وشموخ. . ثم قال وهو يبتسم:
ـــ "سيدو. . لازم نبني البيت".

في تلك اللحظة أتخيل فجأة صديقي الحبيب. . صديق العمر أبا أحمد وكأنه يأتي وأسرته ويمسك بالعلم رافعاً إياه إلى أعلى. . . وفي تلك اللحظة أعيش وكأنني أسمع وأرى أبا أحمد يقول لي ولكل العالم: الصهاينة مروا من هنا. . . ونحن هنا باقون. . . لتبقى فلسطين.

القصص العشر الفائزة؛ سواء بالمراتب الثلاث الأولى والثانية والثالثة، أو السبع الفائزة بالجوائز التقديرية تنتقل بالقارئ من صورة إلى أخرى، تختلف فيها الأسماء والمشاهد وتفاصيل الأحداث، ويبدع كتّابها في نسج اللوحة الفنية بكلمات مباشرة المعنى وأخرى رمزية في دلالتها، ولكنها جميعا تردد ذات المعنى: **"نحن من هناك... نحن باقون... وللحلم بقية"**.